تزكية النفوس

وتربيتها

كما يقرره علماء السلف

جمع وترتيب

أحمد فريد

تحقيق

ماجد بن أبي الليل

الناشر

مكتبة التوعية الإسلامية

للتحقيق والنشر

ت: ٨٦٨٦٠٥ جيزة - مصر

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بيروت

الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ -١٩٨٦ م

مصر

الطبعة الثالثة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

بيروت

الطبعة الرابعة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

مكتبة التوعية

الطبعة الخامسة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

رقم الإيداع

؟٢٣٤١٩ - ٢ ٦

الناشر مكتبة التوعية الإسلامية

لإحياء التراث الإسلامي

الهرم ت : ٥٨٦٨٦٠٥/ جيزة مصر

ناصية شارع محمد عبد الهادى ـ الجوهرة ـ الطالبية ـ الهرم

مقدمة

الطبعة الرابعة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، وأصلي وأسلم على محمد وآله .

أما بعد :

هذه هي الطبعة الرابعة لكتاب « تزكية النفوس وتربيتها » نقدمها للقراء الكرام بعد أن نفدت عدد طبعاتها السابقة من الأسواق ، ورُغّب إلي في إعادة طبعها مرةً أخرى فلم أر بذلك بأساً لما في إعادة طبعها من النفع والخير الكثير إن شاء الله تعالى .

وقد راجعت الكتاب قبل تقديمه للطباعة فوجدت فيه بعض الأخطاء المطبعية منها ما وقفت عليها بنفسي ، ومنها ما أوقفني عليها بعض المجدين في طلب العلم .

كما أضفت في هذه الطبعة بعض الإضافات والاستدراكات وخرجت شيئاً غير قليل من الآثار الموقوفة لم أكن خرجتها في الطبعات السابقة ؛ لأنه لم يكن من شرط عملي في الكتاب ؛ ثم تبيّن لي أنه لا بأس بتخريجها لعموم النفع بها .

كما تمتاز هذه الطبعة عن أخواتها بأنها اشتملت على بعض تنبيهات يوهم ظاهر الكلام شيئاً غير حقيقته انظر (ص ١٣٠) .

وكان قد سقط مني — سهواً — بعض ألفاظ حديث هو في المسند فألحقته في هذه الطبعة (ص ٣٧) حاشية (١) .

هذا ولا يفوتني أن أنبه على بعض ما جاءتني من رسائل حاصلها :

- أنني حسنت أحاديث ضعفها غيري .
- وأنني ضعفت أحاديث حسنها أو صححها غيري ؛ ولا ضير ، ما دمت مراعياً للقواعد العلمية ، والأصول الحديثية ، ولولا أنه تعليق

سريع لذكرت سبب صحة الحديث أو ضعفه وإنني لأراني مصيباً فيما ذهبت إليه وأن المعترض ليس معه سوى التقليد .

مثال :

الحديث المذكور (ص ٤٨) : « من سره أن يحب الله ورسوله ... »

قلت فيه : « ضعيف ، بل هو منكر » ، فتعقبني بعض طلاب العلم بأن فضيلة الشيخ العلامة / الألباني قد حسنه في « صحيح الجامع » وأحال على « الصحيحة » رقم [٢٣٤٣] وإن تعجب فعجبٌ قولهم لأننى ذكرت – في الموضع المشار إليه – علته عن جمع من الحفاظ (ابن عدى ، وأبو نعيم ، والذهبى ، وابن حجر) بما لا يترك مجالاً لمتعقب ، ولعل الشيخ يعيد نظره فيه .

وغير ذلك من الأمثلة التى تجدها مبسوطة فى تعليقاتى على :

١ – كتاب الاستعداد للموت وعذاب القبر – للمعبرى .

٢ – كتاب الزهد – لأحمد .

٣ – كتاب مكارم الأخلاق – للخرائطى .

٤ – كتاب عمل اليوم والليلة – لابن السنى .

نعم حسنت حديث : « كل كلام ابن آدم له إلا .... » (ص ٣٥) في الطبعات السابقة ، ثم ظهر لى أنه معلول فبادرت إلى تضعيفه للعلة المذكورة في الموضع المشار إليه .

وأخيراً أتوجه بالشكر لكل من ساهم فى إخراج هذا الكتاب على هذا النحو الذي بين يديك ،

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

كتبه

أبو سماء

ماجد بن محمد بن أبي الليل

مصر – شبرا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

أن الحمدُ لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا »

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

أما بعد . .

فإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهُدى هُدى

محمد ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلاله ، وكل ضلالة في النار . أما بعد :

إنـه لما اطّلعنا على كتاب « دقائق الأخبار » ، وجدناه خير كتاب للمسلم : الصغير ، والكبير ، الذكر ، والأنثى ، به يستطيع أن يهذب نفسه ، ويزكيها ، ويخليها عن الرذائل ، ويحليها بالفضائل ؛ وذلك لسهولة تناوله ، ناهيك عَن عذوبة اسلوبه ، وجمال عَرضه ؛ فحفظ الله مؤلفه . فإن هذا النوع من العلوم مما اشتدت إليه حاجة المتفهم ، بل وكل مدرس ومعلم .

فلا تُحَقِّرَن صغر حجمه ، فالمؤلفات تتفاضل بالزهر والثمر لا بالهَذَر ، وبالمُلَح لا بالكِبَر ، وبجُموم اللطائف لا بتكثير الصحائف ، وبفخامة الأسرار لا بضخامة الأسفار ، وقد أحسن المؤلِّف (حفظه الله) - جمعَه . واعلم أن مؤلَف الإنسانِ على فضله أو نقصه عنوان ، ولكن ليس هو بالمتحاش عن الخلل ، ولا بالمعصوم عن الزلل ؛ فوجدنا في الكتاب أخطاءً في بعض الآيات - لعلها من الناسخ - وكذلك في عزوه الأحاديث. إلى مصادرها . ولعله في ذلك لا عُتب عليه ؛ لأنه لِكلام الأئمة ناقل ، ولابد أن يعذره كل عاقل ، وأبى الله أن يجعل الكمال إلّا لكتابه ، ولذلك كله أقدمنا على تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب مع عزو كل حديث لأصله من الأصول السبعة وغيرهم ، مع تصحيح الآيات من المصحف والتعليق على كلمةٍ مشكَلةٍ ، أو لفظةٍ مغلقةٍ ، يوضح عبارته ويظهر ملتبسه و يبين مشكَلَه متى تيسر لنا ذلك ونحن في ذلك لا ندعي العصمة — حاشا وكَلاّ — ولكن لم نألُ جهداً في تحقيق هذا السِّفْر الطيب ، وإخراجه في أجمل ثوب وأدق أسلوب .

فيا أيها القارىء لا يحملنك احتقار محققه على التعسف ، ولاحظْ نفسك على أن يكون لك عن الحق تخلف .

فإذا عثرت منه على هفوة أو هَفَوات ، أو صدرت فيه مِنّا كبوة أو

كبوات ؛ فإنما نحن كالذي تفرد في سلوك السبيل ؛ فلا يأمن من أن يناله أمر وبيل ، ومن توحّد بالذهاب في الشِّعَاب والقِفار؛ فلا يبعد أن تلقاه الأهوال والأخطار ، ولا يسلم من الخطأ إلاّ مَن جُعل التوفيقُ دليلَهُ في مفترقات السبل ، وهُم الأنبياءُ والرسل .

ولا نُبرىء أنفسَنا من خلل ولا ريب ، ولا نبيعه بشرط البراءة من كل عيب ، بل نَعترف بكمال القصور ، ونسأل الله العفو عما جرى به القلم بهذه السطور .

وكيف لا ؟! وقد قالوا :

« الإنسان في فسحةٍ من عقله وفي سلامةٍ من أفواه جنسه ما لم يضع كتابا أو لم يقل شعرا » .

وقالوا :

« من صنف كتابا فقد استشرف للمدح والذم ؛ فإنْ أحسن فقد استهدف من الحسد والغيبة ، وإن أساء فقد تعرض للقذف والشتم » .

ولا يخفى عليك أيها الكريم ، أن التعقب على الكتب سهل بالنسبة إلى تأليفها ، وترصيفها ، ووضعها كما يُشاهَد في الأبنية القديمة ، والهياكل العظيمة ، حيث يَعترض على بانيها مَن عرى في فنه عن القوى والقدر ، بحيث لا يقدر على وضع حجر على حجر .

وقد كتب البَيْساني إلى الأصبهاني معتذراً عن كلام استدركه عليه فقال : إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا ؟ وها أنا أخبرك :

« إني رأيت أنه : لا يكتب إنسان كتابا في يوم إلا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زِيدَ لكان يُستحسن ، ولو قُدم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل .

وهـذا من أعظم العِبَـر ، وهو دليـل على استيـلاء النقص عـلى جملة البشر » .

عملي في الكتاب :

(١) آثرنا عزو الحديث إلى مكانه من كتب السنـة المشروحـة ؛ حتى يتيسر للقارىء الرجوع لشرح الحديث ؛ لتكتمل الفائدة مع الاقتصار عـلى مصدر أو اثنين ، أو نحو ذلك إلا في بعض المواضع ، لحاجة اقتضت ذلك . مع بيان درجة الحديث من الصحة أو الحسن أو الضعف .

(٢) تصحيح الخطأ الواقع في العزو ، مثل ما جاء :
(ص ٣٤) حـديث « **أمسـك عليـك لسـانـك** » عـزاه المؤلف للبخاري ومسلم وليس هو عندهما ، ولا عند أحدهما .

(٣) تصحيح الخطأ الـواقع في نسبـة الحديث مـرفوعـا وموقـوفا ، مثـل ما جاء :
(ص ٥١) حديث « طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيرا »

نسبه لعائشة موقوفا عليها وليس كذلك ، بل هـو مرفـوع من حديث عـائشـة وعبـد الله بن بسـر ومـوقـوف عـلى أبي الـدرداء (رضي الله عنه) .

(٤) التعقيب على بعض الاصطلاحات مثل ما جاء :
(ص ٤٨) حـديث « **من سـره أن يحب الله ورسـولـه فليقـرأ في المصحف** » صدّره بقوله « وقد صح » وليس بصحيح ، بل هو منكر أو باطل .

(٥) لم نهتم بتخريج الآثار الموقوفة، وإن كان قد وقع لنا ذلك في مواضع منها :

الأول ما جاء : (ص ٧٥) « حاسبوا أنفسكم » موقوف على عمر عند الترمذي

الثاني ما جاء : (ص ١٢٨) « إني لأحتسب نومتي » موقوف على معاذ عند مسلم

الثالث ما جاء : (ص ٣٣) « من كثر كلامه كثر سقطه » موقوف على عمر عند أبي نعيم .

(٦) وضعنا قبل الحديث الصحيح كلمة « صحيح » ، وكذلك الجيد ؛ لأن الجودة يعبر عنها بالصحة وقبل الحديث الحسن كلمة « حسن » ، وكلمة « ضعيف » قبل الحديث الضعيف وإن كان منكراً أو لا أصل له .

وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما تركنا كلمة « صحيح »؛ لأن إخراج البخاري ومسلم للحديث في صحيحيهما يكفي للحكم بصحته أيما كفاية .

(٧) إذا كان الحديث عند البخاري ومسلم اكتفينا بعزوه إليهما ـ أو أحدهما ـ وإن أخرجه غيرهما .

وسميته بـ « تزكية النفوس وتربيتها »

وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل

كتبه

ماجد بن محمد بن أبي الليل

أبو سماء

من مطبوعات مكتبة التوعية الإسلامية ت : ٥٨٦٨٦٠٥ الهرم

« فى الحديث وعلومه »

١ ـ تبييض الصحيفة باصول الأحاديث الضعيفة
تاليف الشيخ : محمد عمرو عبد اللطيف
٢ ـ التقريرات السنية شرح المنظومة البيقونية
تاليف الشيخ : حسن المشاط
٣ ـ كشف المخبوء بثبوت حديث التسمية عند الوضوء
تاليف الشيخ : ابى اسحق الحوينى
٤ ـ منزلة السنة فى التشريع الإسلامى
تاليف الدكتور الشيخ / محمد امان بن على الجامى
٥ ـ الرجال الذين تكلم عليهم الحافظ المنذرى فى كتابه
الترغيب والترهيب جرحا وتعديلا ،
ويليه الرواة المختلفة فيهم المشار إليهم في نفس الكتاب
ويليه رسالة فى الجرح والتعديل للمنذرى ايضاً
جمع وترتيب وتعليق الشيخ ماجد بن محمد بن ابى الليل
٦ ـ شرح الأربعين النووية للإمام النووى
تحقيق وتعليق الشيخ محمد رشيد رضا
٧ ـ تكميل النفع بما لم يثبت به وقف ولارفع
تاليف الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف

وتنشد مكتبة التوعية التعاون المخلص
البناء مع طلاب العلم الشرعى وتستنصحهم
حتى يكون التعاون المنشود على البر والتقوى
وينال الجميع خير الدنيا و سعادة الآخرة
برحمة الله ومنه سبحانه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

إنّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ؛ ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ـ صلى اللهم عليه ، وعلى آله ، وصحبه ، وسلّم ـ .

أما بعد :

لما كان من المهمات ـ التي بُعث بها نبي هذه الأمة محمد ﷺ ـ تزكية النفس ؛ كما قال عز وجلّ[1] ممتناً ببعثه ﷺ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

كان على مَن يرجو الله واليومَ الآخر ؛ الإهتمام بتزكية نفسه خاصة وقد علّق الله عز وجلّ فلاح العبد بتزكية نفسه ؛ وذلك بعد إحدى عشر قسماً

(١) سورة الجمعة آية (٢).

متوالياً ، ولا يوجد في القرآن بأكمله أقسام متوالية على هذا النسق فقال[1] عز وجلّ :

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

والتزكية معناها التطهير، ومنها سُميت صدقة المال بالزكاة ؛ لأن بها يطهر المال بإخراج حق الله فيه .

ولما تعذر الانتفاع بكتب الرقائق المختلفة التي صنفها القدماء[2] لعدة أمور منها : أنّ أغلبها مجلدات ضخمة ، يصعب على كل مسلم الحصول عليها ، وكذلك : كثرة الأخبار الضعيفة ، والموضوعة ، عمدنا ـ بحمد الله تعالى ـ إلى جمع أصحّ[3] الأخبار في موضوعات الرقائق المختلفة ، نقلاً عن علماء الأمة الذين برعوا في هذا العلم[4] : كالإمام شمس الدين ابن القيم ، وابن رجب الحنبلي ، والإمام أبي حامد الغزالي ، راجين الله أن ينفع بهذا الكتاب ناقله ، وناشره ، وقارئه « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ مَن أتى اللهَ بقلب سليم »[5] .

ولله الحمد والمنّة . وهو مولانا وإليه المصير .

---

(١) سورة الشمس الآيات من (١ : ١٠).

(٢) يعني السلف الصالح .

(٣) وهذا في الأغلب .

(٤) يعني في علم الرقائق : وليس المقصود في معرفة أصحّ الأخبار؛ لأن الغزّالي (عليه رحمة الله) كما كان يقول مخبراً عن نفسه : «أنا مزجي البضاعة في علم الحديث» .

(٥) سورة الشعراء الآية (٨٨ ــ ٨٩) .

الإخــلاص

الإخلاص : هو تجريد قصد التقرب إلى الله - عز وجل - عن جميع الشوائب .

وقيل : هو إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

والاخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ ، وقد أمرنا الله عز وجل به فقال تعالى[1] :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾

وعن أبي أُمامةَ - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجرَ والذِكْر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ : لا شيء له ، ثم قال : « إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتُغي به

(١) سورة البينة الآية (٥)

وجهه » . رواه أبو داود والنسائي بإسناد جيد [١] .

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « نَضَر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ؛ فرّبّ حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل [٢] عليهن قلب امرئ مؤمن : إخلاص العمل لله ، والمناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم » .

رواه البزار بإسناد حسن وابن حبان في صحيحه [٣] .

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب ، فمن تخلق بها طَهُر قلبه من الخيانة والدغَل [٤] والشر .

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلاّ بالإخلاص لقول الله عز وجل [٥] : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، ورُوى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه : « يا نفس اخلصي تتخلصي » .

وكلُّ حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفسُ ، ويميل إليه القلب ، قلّ أم كثر ، إذا تطرق إلى العمل ؛ تكدر به صفوه ، وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط في حظوظه ، منغمس في شهواته ، قلما ينفك فعلٌ من أفعاله ، وعبادةٌ من عباداته عن حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ من هذه الأجناس ؛

---

(١) صحيح . قاله المنذري في الترغيب (١/٢٤) والحافظ في الفتح (٦/٢٨) . وهو عند النسائي في الجهاد (٦/٢٥) وفي عزوه لأبي داود نظر ؛ قال ابن القطان : « إنه ليس عند أبي داود . كذا في فيض القدير (٢/٢٧٥) . ولم يعزه المزى له كما فى الأطراف (٤/١٦٨) » .

(٢) يغل : بكسر الغين المعجمة وتشديد اللام وضمّ الياء من أغل إذا خان ، وبفتح الياء من غلَّ إذا صار ذا حقدٍ وعداوةٍ .

(٣) صحيح : وأخرجه ابن ماجة من عدة طرق قال السندي (١/١٠٤) : وقد تكلم في الزوائد على بعض الأحاديث إلا أن متونها ثابتة عن الأئمة . « ا هـ » وهو عند ابن حبان في الموارد ص (٤٧) عن زيد بن ثابت . وفى صحيحه رقم (٦٧) الإحسان ، وعند البزار (٨٥-١/٨٦) كشف الأستار من حديث أبي سعيد الخدرى . وراجع مجمع الزوائد (١/١٣٧) .

(٤) الدغَل ، بالتحريك : الفساد .

(٥) سورة ص الآية (٨٣) .

فلذلك قيل : « مَن سلم له من عمره لحظةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجه الله نجا » ؛ وذلك لعزّةِ الإخلاص ، وعُسْرِ تنقيةِ القلبِ عن الشوائب . فالإخلاص : تنقيةُ القلبِ مِن الشوائب كلِها ، قليلِها وكثيرِها ، حتى يتجرد فيه قصدُ التقرب فلا يكون فيه باعثٌ سِواه ، وهذا لا يُتصور إلاّ مِن محبٍ لله مستغرقِ الهمّ بالآخرة ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرارٌ ، فمثلُ هذا لو أكل ، أو شرب ، أو قضى حاجته ، كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فبابُ الإخلاص مسدودٌ عليه إلا على الندور .

وكما أن مَن غلب عليه حبُ الله ، وحبُ الآخرة ، فاكتسبت حركاتُه الاعتيادية صفةَ همه ؛ وصارت إخلاصا ، فالذي يغلب على نفسه الدنيا ، والعلو ، والرياسة ، وبالجملة غير الله[1] ؛ اكتسبت جميعُ حركاته تلك الصفة ؛ فلا تسلم له عبادةٌ من صومٍ ، وصلاةٍ وغيرِ ذلك إلاّ نادراً .

فإنّ علاجَ الإخلاص كسرُ حظوظ النفس ، وقطعُ الطمع عن الدنيا ، والتجردُ للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ؛ فإن ذاك يتيسّر به الإخلاص . وكم من أعمال يَتعب الإنسان فيها ، ويظن أنها خالصةٌ لوجه الله ، و يكون فيها من المغرورين ؛ لأنه لم يَرَ وَجْهَ الآفةِ .

كما حُكي عن بعضهم : أنه كان يصلي دائما في الصف الأول ، فتأخّر يوما عن الصلاة فصلى في الصفِ الثاني ؛ فاعترتْه خجلةٌ من الناس حيث رأَوْه في الصف الثاني ؛ فعَلِم أن مسرّته وراحة قلبه من الصلاة في الصف الأول كانت بسبب نظرِ الناسِ إليه ، وهذا دقيقٌ غامضٌ قلما تسلم الأعمالُ من أمثاله ، وقلَّ من يتنبه له إلا مَن وفقه الله تعالى . والغافلون عنه يَرَوْن حسناتهم يومَ القيامة سيئاتٍ ، وهم المقصودون بقوله تعالى [2] .

---

(١) أي يغلب على نفسه كل شيء لغير وجه الله .

(٢) سورة الزمر آية (٤٧) .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾

وبقوله عز وجل [١] :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً . ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ .

---

(١) سورة الكهف (١٠٣ ـ ١٠٤).

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : « المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته »[1].

قال السوسي : « الإخلاص فَقْدُ رؤية الإخلاص ، فإن مَن شاهد في إخلاصه الإخلاصَ فَقَدْ احتاج إخلاصُه إلى إخلاص » . وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العُجْب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص ، والنظر إليه عُجْب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب : « تخليص النيات على العُمّال أشد عليهم من جميع الأعمال » .

وقال بعضهم : « إخلاصُ ساعة نجاةُ الأبد ، ولكنّ الإخلاصَ عزيزٌ » .

وقيل لسهل : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : « الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب » .

وقال الفُضَيْل : « ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعملُ من أجل الناس شرك ، والإخلاص : أن يعافيَك الله منهما » .

---

(١) وكانت رابعة العدوية توصى بذلك كما فى « الوفيات » (٢/٢٨٥) .

حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه « نَوَيتُ » ، بل هـو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله ، فقد تتيسر في بعض الأوقاتُ ، وقد تتعذر في بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحـوال إحضارُ النية للخيرات ، فإنّ قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالباً . ومَن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه ؛ لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض إلاّ بجهدِ جَهيد . وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)[1] عن رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . رواه البخاري ومسلم .

رُوى عن الشافعي أنه قال : « هذا الحديث ثلث العلم » .

قوله : « **انما الأعمال بالنيات** » يعني أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالخواتيم »[2] ، وقوله ﷺ : « **وإنما لكل امرىء ما نوى** » يعني ثواب العامل على عمله بحسب النيات

---

(١) الحديث رواه البخاري في بدء الوحي (١/٩) ومسلم في الإمارة (١٣/٥٣) .
(٢) البخاري في القدر (١١/٤٩٩) من حديث سهل بن سعد (رضي الله عنه) .

الصالحة التي يجمعها في العمل الواحد ، وقوله : « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه** » بعد إرساء القاعدة الأولى ذَكَرَ مثالا للأعمال التي صُورتُها واحدة وتختلف في صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصي عن موضعها ، فلا ينبغي أن يَفهم الجاهلُ ذلك من عموم قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » ، فيظن أن المعصية تصير طاعة بالنية ؛ فإن قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » يخص من أقسام العمل الثلاثة : الطاعات ، والمباحات دون المعاصي ، إذ الطاعة تنقلب معصيةً بالقصد ، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد [1] ، أما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ، ودخول النية في المعصية إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعفَ وِزرُها وعظُمَ وبالُها .

والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها ، وفي تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو أن ينوي بها عبادةَ الله وحده ، فإن نوى الرياءَ صارت معصية ، وأما تضاعُف الفضل فبكثرة النيات الحسنة . أما المباحات فما من شيء منها إلاّ ويحتمل نية ، أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات .

---

(١) والدليل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه (٧/٩١) من حديث أبي ذرّ مرفوعا: « . . . وفي بُضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكون له فيها أجر قال أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وِزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» قال النووي : - وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوي به قضاءَ حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلبَ ولد صالح، أو إعفافَ نفسه، أو إعفافَ الزوجة، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه، أو الهمّ به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة اهـ وسيأتي أثر معاذ (ص ١٢٨) : « إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي » .

فضل النية

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : « أفضل الأعمال أداءُ ما افترض الله تعالى ، والورعُ[1] عما حرم الله ، وصدقُ النية فيما عند الله تعالى » .

وقال بعض السلف : « رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظمه النية ، وربَّ عمل كبير تصغره النية » .

وعن يحيى بن أبي كثير : « تَعلّموا النية ؛ فإنها أبلغ من العمل » .

وصح[2] عن ابن عمر أنه سمع رجلاً عند إحرامه يقول : اللهم إني أريد الحج والعمرة فقال له : « أتُعلِم الناس ، أوَليس الله يعلم ما في نفسك » ؛ وذلك لأن النية هي : قصد القلب ، ولا يجب التلفظ بها في شيء من العبادات[3].

---

(١) انظر ورع أبي اسحاق الشيرازي : دخل يوما المسجد ليأكل فيه شيئاً على عادته ، فنسي ديناراً ، فذكره في الطريق فرجع فوجده فتركه ولم يمسه ، وقال : ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري . كذا في تهذيب الأسماء للنووي (١/١٧٣) .

(٢) صححه ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص (١٩) .

(٣) خلافاً لطائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد .

فضيلة العلم والتعليم

شواهده في القرآن كثيرة ، منها قوله[1] عز وجل :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾

وقوله[2] عز وجل :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وأما الأخبار[3] ، قول رسول الله - ﷺ - : « من يُرِدِ اللهُ به خيرا يفقهه في الدين » . رواه البخاري ومسلم[4] . وقوله - ﷺ - : « مَن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنة » . من حديث رواه مسلم[5]

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء ، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثلُ حفظهِ ومدارستَه .

---

(١) المجادلة آية (١١) .

(٢) الزمر آية (٩) .

(٣) الخبر والحديث في المشهور بمعنى واحد .

(٤) البخاري في العلم (١/١٩٧) ومسلم في الزكاة (٧/١٢٨) كلاهما عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما .

(٥) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢١) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) .

وقوله ﷺ : « سهَّل الله له به طريقا إلى الجنة » قد يراد بذلك أن الله يسهل له العلم الذي طلبه ، وسلك طريقه ، وييسره عليه ، فإنّ العلمَ طريقٌ يوصل إلى الجنة ، كما قال بعض السلف : « هل مِن طالب علمٍ فيُعان عليه » . وقد يراد به طريق الجنة يوم القيامة وهو الصراط وما قبله وما بعده .

والعلم أيضاً يدل على الله تعالى من أقرب طريق ، فمن سلك طريقه وصل إلى الله تعالى وإلى الجنة من أقرب طريق ، والعلم أيضاً يهتدي به في ظلمات الجهل والشُّبه والشكوك ، ولهذا سمى الله كتابه نوراً ؛ وفي الصحيحين[1] عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ولكن يقبضه بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناسُ رؤوساً جهّالا فَسُئلوا فأفتَوْا بغير علم فضَلوا وأضلّوا » .

وسُئل عبادة بنُ الصامت عن هذا الحديث فقال : « لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس : الخشوع » .

وإنما قال عبادة رضي الله عنه هذا لأن العلم قسمان : أحدهما ما كان ثمرته في قلب الإنسان ،وهو العلم بالله تعالى ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله المقتضي لخشيته ، ومهابته ، واجلاله ، ومحبته ، ورجائه ، والتوكل عليه ، فهذا هو العلم النافع كما قال ابن مسعود : « إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم[2] ، ولكن إذا وقع في القلب فَرَسَخَ فيه نفع » . وقال الحسن : العلم علمان : علم على اللسان فذاك حجة على ابن آدم ، كما في الحديث[3] : « القرآن حجة لك أو عليك » . وعلم في القلب ، فذاك العلم النافع ، فأول

---

(١) البخاري في العلم (١/٢٣٤) ومسلم في العلم (١٦/٢٢٣).

(٢) جمع ترقوة وهي : عظم يصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين ولكل إنسان ترقوتان.

(٣) مسلم في الطهارة من حديث أبي مالك الحارث الأشعري (٣/٩٩).

ما يرفع من العلمِ العلمُ النافعُ ، وهو العلم الباطن الذي يخالط القلوب ويصلحها ، ويبقى علم اللسان فيتهاون الناس به ولا يعملون بمقتضاه ، لا حملته ولا غيرهم ، ثم يذهب هذا العلم بذهاب حَمَلته وتقوم الساعة على شرارِ الخلقِ .

أنواع القلب وأقسامه

قال تعالى [1] :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ .

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود ، الذي تصدر كُلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيْغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم ، أو يحله ، قال النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلبُ » . متفق عليه [2] .

فهو مَلِكُها ، وهي المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هديه ، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ؛ لأن كل راع مسئول عن رعيته : كان [3] الإهتمام بتصحيحه ، وتسديده ، أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضِه وعلاجُها أهم ما تنسك به الناسكون .

---

(١) الاسراء آية (٣٦) .

(٢) البخاري في الإيمان (١/١٢٦) ومسلم في المساقاة (١١/٢٦) كلاهما من حديث النعمان ابن بشير وهو قطعة من حديث طويل .

(٣) «كان الاهتمام بتصحيحه» خبر لمبتدأ مرّ وهو قوله «ولما كان القلب لهذه الأعضاء . . .»

أقسام القلوب

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها ؛ انقسم بحسب ذلك إلى ثلاثة أقسام : القلب الصحيح أو السليم ، والقلب الميت ، والقلب المريض .

١ - **القلب الصحيح** . هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلاّ من أتى الله تعالى به ، كما قال تعالى[1] :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

وقيل في تعريفه : إنه القلب الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله ، فخلصت عبوديته لله تعالى ، إرادةً ، ومحبةً ، وتوكلاً ، وإنابةً ، وإخباتاً ، وخشيةً ، ورجاءً ، وخلص عمله لله ؛ فإنْ أحب أحب في الله ، وإنْ أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الإنقياد والتحكيم لكل مَن عدا رسوله - ﷺ - ؛ فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الإتمام والإقتداء به وحده ، دون كل أحد

---

(١) الشعراء الآيتان (٨٨/٨٩).

في الأقوال والأعمال ؛ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل ؛ قال تعالى[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

٢ - **القلب الميت** : وهو ضد القلب السليم ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره[2] وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ، ولذاته ، ولو كان فيه سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير الله ؛ إنْ أحب أحب لهواه ، وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، وإن منع منع لهواه ، فهواه آثر عنده ، وأحب إليه من رضى مولاه ، فالهوى إمامُه والشهوةُ قائدهُ ، والجهلُ سائقهُ ، والغفلةُ مركبهُ ، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ، ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يُصمُّه عما سوى الباطل ويعميه[3] ؛ فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سمّ ، ومجالسته هلاك .

٣ - **القلب المريض** : قلب له حياة وبه علة تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منها ، ففيه من محبة الله تعالى ، والإيمان به ،

---

(١) الحجرات آية (١).

(٢) ولا بغير أمره.

(٣) كما جاء في الحديث «حبك للشيء يعمي ويصم» وهو عند أبي داود في الأدب (١٤/٣٨) من حديث أبي الدرداء مرفوعاً . وأحمد في المسند موقوفاً ومرفوعاً (٥/١٩٤)، ومرفوعاً (٦/٤٥٠) من حديث أبي الدرداء أيضا والحديث سكت عليه أبو داود وحسنه بعضهم وضعفه بعضهم . فهو حسن إن شاء الله تعالى .

والإخلاص له والتوكل عليه ، ما هو مادة حياته . وفيه من محبة الشهوات ، وإيثارها ، والحرص على تحصيلها ، والحسد ، والكبر[1]، والعجب ، ما هو مادة هلاكه وعطبه[2]، فهو مُمْتَحن من داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً ، وأدناهما إليه جواراً .

فالقلب الأول : حي ، مخبت[3] ، لين ، واع ، والثاني : يابس ، ميت ، والثالث : مريض ؛ فإما إلى السلامة أدنى ، وإما إلى العطب أدنى .

---

(١) الحسد : أن تكره تلك النعمة لأخيك وتحب زوالها عنه وهو المذموم / وأما الكبر: هو التكبر على العباد واحتقارهم واستعظام النفس عليهم كما قال ﷺ «الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم (٢/٨٩).

(٢) عطبه : يعني هلاكه.

(٣) مخبت : خاشع متواضع.

علامات مرض القلب وصحته

● علامات مرض القلب :

قد يمرض قلب العبد ، ويشتد المرض ، ولا يعرف به صاحبه . بل قد يموت وصاحبه لا يعرف بموته ، وعلامة مرضه أو موته ؛ أن صاحبه لا تؤلمه جراحات المعاصي ، ولا يوجعه جهلهُ بالحق ، وعقائدهُ الباطلة ، فإن القلب إذا كان حياً تألم بورود القبائح عليه ، وتألم بجهله بالحق - بحسب حياته - وقد يشعر بالمرض ، ويشتد عليه مرارةُ الدواء ؛ فهو يؤثر بقاء الألم على مشقة الدواء .

ومن علامات أمراض القلوب عدولها عن الأغذية النافعة إلى الضارة ، وعدولها عن الدواء النافع إلى دائها الضار ، فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك . وأنفع الأغذية : غذاء الإيمان ، وأنفع الأدوية : دواء القرآن .

● علامات صحة القلب :

أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ، ويحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها ، وأبنائها ، جاء إلى هذه الدار غريبًا يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه ، كما قال ﷺ لعبد الله ابن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو

عابر سبيل » رواه البخاري (١) وكلما مرض القلب آثر الدنيا ، واستوطنها ، حتى يصير من أهلها .

- ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ، ويخبت إليه ، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه ؛ فيستغني بحبه عن حب ما سواه ، و بذكره عن ذكر ما سواه ، و بخدمته عن خدمة ما سواه .

- ومن علامات صحة القلب أنه إذا فاته وِرْدُه[٢] أو طاعة من الطاعات ؛ وَجَدَ لذلك ألماً أعظم مِن تألم الحريص بفوات ماله وفقده .

- ومن علامات صحته أنه يشتاق إلى الخدمة كما يشتاق الجائع إلى الطعام والشراب ، قال يحيى بن معاذ : « من سُر بخدمة الله سُرت الأشياء كلها بخدمته ومَن قَرّت عينه بالله قرّت عُيون كل أحدٍ بالنظر إليه » .

- ومن علامات صحته : أن يكون همه واحداً ، وأن يكون في الله - يعني في طاعة الله .

- ومن علامات صحته : أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعاً كأشد الناس شُحاً بماله .

- ومن علامات صحته : أن يكون إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ، ووجد فيها راحتَهُ ونعيمَه ، وقرةَ عينه ، وسرورَ قلبه .

- ومن علامات صحته : أن لا يفتر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته ، ولا يأنس بغيره إلاّ بمن يدله عليه ويذكّره به .

- ومنها أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل ، فيحرص على الإخلاص فيه ، والنصيحة ، والمتابعة ، والإحسان ، و يشهد مع ذلك مِنّةَ الله عليه فيه ، وتقصيرَه في حق الله .

---

(١) البخاري في الرقاق (١١/٢٣٣) من حديث عبد الله ابن عمر .

(٢) الوِرْد : النصيب من القرآن أو الذِكرْ .

أسباب مرض القلب

والفتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات والشبهات ، فالأولى : توجب فسادَ القصد والإرادة ، والثانية : توجب فسادَ العلم والإعتقاد .

عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير ، عوداً عوداً ، فأيّ قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين : قلبٍ أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلّا ما أُشرب من هواه ، وقلبٍ أبيض لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض » رواه مسلم[1] .

فقسّم ﷺ القلوب عند عرض الفتن عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء ؛ فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودّ وينتكس ، وهو معنى قوله : « كالكوز مجخياً » أي مكبوباً منكوساً ، فإذا اسودّ وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك ،

---

(١) مسلم في الإيمان (٢/١٧٠) وألفاظه غير هذه.

أحـدهما : اشتبـاه المعروف عليـه بالمنكـر ، فلا يعـرف معـروفـاً ولا ينكـر منكـراً ، وربما استحكم عليـه هذا المـرض حتى يعتقـد المعـروف منكـراً ، والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة ، والبـدعة سنـة ، والحق باطـلا ، والباطـل حقاً . الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به الـرسول ﷺ وانقيـاده للهوى ، واتباعه له .

وقلب[1] أبيض قد أشرق فيه نور الإيمـان ، وأزهر فيـه مصباحـه ؛ فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردّها ؛ فازداد نوره وإشراقه .

---

(١) وهو القسم الثاني من القلوب عند عرض الفتن عليها .

سموم القلب الأربعة

اعلم أن المعاصي كلها سموم للقلب ، وأسباب لمرضه وهلاكه ، وهي منتجة لمرض القلب وإرادته غير إرادة الله عزّ وجل ، وسبب لزيادة مرضه .

قال ابنُ المبارك :

رأيتُ الذنوبَ تُميت القلوبَ وقد يورثُ الذلَ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانُها

فمن أراد سلامة قلبه وحياته فعليه بتخليص قلبه من آثار تلك السموم ، ثم بالمحافظة عليه بعدم تعاطي سموم جديدة ، وإذا تناول شيئاً من ذلك خطأً سارع إلى محو أثرها بالتوبة والاستغفار ، والحسنات الماحية .

ونقصد بالسموم الأربعة : فضول الكلام ، وفضول النظر ، وفضول الطعام ، وفضول المخالطة ؛ وهي أشهر هذه السموم انتشاراً ، وأشدها تأثيراً في حياة القلب .

فضول الكلام

ورد في المسند[١] : عن أنس عن رسول الله ﷺ : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» فشرط ﷺ استقامة الإيمان باستقامة القلب ، ثم شرط استقامة القلب باستقامة اللسان . وفي الترمذي[٢] من حديث ابن عمر مرفوعاً « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي » . وقال عمر بن الخطاب[٣] ـ رضي الله عنه ـ : « مَن كثر كلامه كثر سقطه ؛ ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ؛ ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به » .

وفي حديث معاذ قولُه ﷺ : « . . ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه ثم قال : كفّ عليك هذا ، قلت : يا نبي الله

---

(١) ضعيف : قال المنذري : رواه أحمد وابن أبي الدنيا في الصمت كلاهما من رواية عليّ بن مسعدة اهـ (٣/٣٣٤) . وضعفه العراق في تخريج الإحياء (٨/١٥٣٩) وهو فى المسند (٣/١٩٨) .

(٢) ضعيف : أخرجه الترمذي في الزهد (٧/٩٢) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب (ا هـ) . وإبراهيم تَرجم له الذهبيُ في الميزان (١/٤١) وذكر هذا الحديث من غرائبه . وأخرجه أحمد فى الزهد (ص ٥٦) ولكن من كلام عيسى بن مريم

(٣) ضعيف: رواه أبو حاتم ابن حبان في (روضة العقلاء) بنحوه (ص٤٤،٨٠) والبيهقي في الشعب موقوفاً على عمر، قاله العراقي في تخريج الإحياء (٨/١٥٤١). وقد روى مرفوعاً من حديث ابن عمر رواه أبو نُعيم في الحلية (٣/٧٤) بسند ضعيف كما قال العراقي .

وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ ، فقال : ثَكِلَتْكَ أمك[١] يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلاّ حصائد ألسنتهم ؟ » رواه الترمذي والحاكم وصححه على شرطهما[٢] . والمراد بحصائد الألسنة : جزاء الكلام المحرم وعقوباته فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسناتِ والسيئاتِ ؛ ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ؛ فمن زرع خيراً من قول أو عمل حصد الكرامة ، ومن زرع شراً من قول أو عمل حصد الندامة .

وفي حديث أبي هريرة « أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان : الفم والفرج » أخرجه أحمد والترمذي[٣] . وفي الصحيحين[٤] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » ، وخرجه الترمذي[٥] بلفظ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوى بها سبعين خريفاً في النار » .

وقال عقبة بن عامر قلت : يا رسول الله ما النجاة قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » رواه البخاري ومسلم[٦] .

---

(١) أي : فقدتك أمك ، وهو دعاء عليه بالموت على ظاهره ولا يراد وقوعه بل تأديبٌ وتنبيه من الغفلة وتعظيم للأمر .

(٢) صحيح : الترمذي في الإيمان (٧/٣٦٢) وقال : حسن صحيح ، والحاكم في المستدرك في التفسير (٢/٤١٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي .

(٣) صحيح : الترمذي في البر والصلة وقال : هذا حديث صحيح غريب (٦/١٤٢) ، والحاكم في المستدرك في الرقاق (٤/٣٢٤) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي ، وعند أحمد (١٩/٧٥) في الفتح الرباني .

(٤) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٨) ومسلم في الزهد (١٨/١١٧) .

(٥) صحيح : الترمذي في الزهد (٦/٦٠٤) وقال حسن غريب من هذا الوجه .

(٦) حسن : ليس في البخاري ولا في مسلم بل أخرجه الترمذي في الزهد (٧/٨٧) بلفظ « أملك » وقال : هذا حديث حسن « ا هـ » والقطعة الأولى من الحديث رواه ابن قانع والطبراني عن الحارث بن هشام قال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٩٨) والمنذري في الترغيب (٤/٥) : رواه الطبراني بإسنادين وأحدهما جيد ، وعزاه المنذري في الترغيب (٤/٣) لأبي داود والترمذي . وأما رواية « أمسك » فهي عند أبي نعيم في الحلية (٢/٩) . وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد (ص ١٥) .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من يتكفل لي ما بين لحييه وفخذيه أتكفل له الجنة » رواه البخاري[1]

وقوله ﷺ ـ في حديث الصحيحين[2] ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » أمر منه ﷺ بقول الخير والصمت عما عداه ، فالكلام إما أن يكون خيراً فيكون العبد مأموراً به ، وإما أن يكون غير ذلك فيكون مأموراً بالصمت عنه ، وخرّج[3] الترمذي ، وابن ماجة من حديث أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ : « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر الله عز وجل » .

الآثار : دخل عمر بن الخطاب على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فوجده يجبذ لسانه بيده ، فقال عمر : مه غفر الله لك ، فقال أبو بكر : هذا الذي أوردني الموارد[4] .

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « والله الذي لا إله إلّا هو ليس شيء أحوج إلى طول سجن من لساني » . وكان يقول[1] « يا لسان قل خيراً

---

(١) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٨) والحدود (١٢/١١٣) عن سهل بن سعد . وليس بلفظ (يتكفل) بل في الرقاق (يضمن) وفي الحدود (توكل) فاعلمه .

(٢) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٨) ومسلم في الإيمان (٢/١٨) .

(٣) ضعيف : الترمذي فى الزهد (٧/٩٣) وابن ماجة فى الفتن (٢/١٣١٥) وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس » قال المنذرى فى الترغيب (٤/١٠) : « رواته ثقات وفى محمد بن يزيد كلام قريب لا يقدح وهو شيخ صالح » .
قلت : وقد كنت اغتررت لكلام المنذرى هذا وحسنته فى الطبعات السابقة ولكنى وقفت على علة له ، وهى جهالة المرأة التى ترويه عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة ، وتكنى أمّ صالح فهى علة الحديث .

(٤) حسن : وتمامه أن رسول الله قال : « ليس شيء من الجسد إلّا وهو يشكو ذرب اللسان » . أخرجه أبو يعلى في مسنده والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى بكر كما عزاه السيوطى فى الجامع الصغير ورمز لحسنه (٥/٣٦٧) ونقل السيوطي في الجامع الكبير عن الحافظ ابن كثير أنه قال : إسناده جيد « اهـ » وعزاه العراقي في الإحياء (٨/١٥٣٩) إلى ابن أبي الدنيا أيضاً في الصمت وقال : والحديث قال عنه الدارقطني : رُوي هذا الحديث عن قيس بن أبي حازم عن أبى بكر ولا علة له . (اهـ) . وهو عند أبى يعلى برقم (٥)(١/١٧) .

(١) ليس القائل هو ابن مسعود : إنما القائل ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣٢٧ – ١/٣٢٨) وأخرج أحمد فى الزهد (ص١٨٨) نحوه وكذا عزاه له في جامع العلوم (ص٣٣٥) ابن رجب

تغنم ، واسكت عن شر تسلم مِن قبل أن تندم » .

وعن أبي هريرة عن ابن عباس قال : « إنه بلغني أن الإنسان أراه قال ليس على شيء من جسده أشد حنقاً أو غيظاً يوم القيامه منه على لسانه إلاّ من قال به خيراً أو أملى به خيراً » .

وقال الحسن : « ما عقل دينَه مَن لم يحفظ لسانه » .

وأقل آفات اللسان ضرراً الكلام فيما لا يعني ، ويكفي في بيان خطر هذه الآفة قوله ﷺ : « مِن حسْن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . حديث حسن[1]

وروى أبو عبيدة عن الحسن قال : « من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلاناً من الله عز وجلّ » . وقال سهل : « من تكلم فيما لا يعنيه حرم الصدق » .

وهذه كما ذكرنا أخف آفات اللسان ضرراً ، وناهيك عن الغيبة والنميمة والكلام الباطل الفاحش ، وكلام ذي الوجهين . والمراء ، والجدال ، والخصومة والغناء ، والكذب والمدح ، والسخرية ، والاستهزاء ، والخطأ في فحوى الكلام ، وغير ذلك مِن الآفات التي تصيب لسان العبد فتفسد عليه قلبه ، وتضيع عليه سرورَه ونعيمَه في الدنيا ، وفوزَه وفلاحَه في الآخرة . والله المستعان .

---

(١) صحيح : الترمذي في الزهد (٦/٦٠٧) من حديث أبي هريرة وقال الترمذي : غريب . وأحمد في المسند (١/٢٠١) والفتح الرباني (١٩/٢٥٧) قال الشيخ شاكر في تحقيق المسند (٢/١٧٧) إسناده صحيح اهـ وحسنه النووي في الرياض برقم (٦٨) وفي الأربعين رقم (١٢) . وقال الهيتمي في الفتح المبين ص (١٤٤) : أشار ابن عبد البر إلى أنه صحيح اهـ .

فضول النظر

وفضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور في قلب الناظر ؛ فيُحدث أنواعاً من الفساد في قلب العبد :

- منها : ما ذكره رسول الله ﷺ - كما جاء في المسند[1] - ما معناه : « والنظرة سهم مسموم من سهام إبليس ؛ فمن غضّ بصره لله أورثه حلاوةً يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه » .

- ومنها : دخول الشيطان مع النظرة ، فإنه ينفذ معها أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي ؛ ليُزين صورة المنظور ، ويجعلها صنماً يعكف عليه

---

(١) ضعيف : واللفظ المذكور عند الطبراني (٨/٦٣) من المجمع . والحاكم في المستدرك (٤/٣١٤) ولفظ أحمد في المسند (٥/٢٦٤) من حديث أبي أمامة : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أول مرة ثم يغض بصره إلّا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها » قال ابن كثير في تفسير سورة النور آية (٣٠) بعد أن ساق رواية أحمد (٥/٨٦) : وروى هذا مرفوعاً عن ابن عمر وحذيفة وعائشة ولكن في أسانيدها ضعف . (اهـ) . قال البيهقي : إنما مرادُه إن صحّ – والله أعلم – أن يقع بصره عليها من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعاً (اهـ) من الزواجر الكبيرة رقم (٢٤٢) . ويغنى عنه فى تحريم ذلك ما ثبت عند أبي داود فى النكاح (٦/١٨٦) والترمذي فى الآداب (٨/٦١) وحسنه ، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/١٩٤) : « يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة » وكذلك ما أخرجه مسلم في الآداب (١٤/١٣٨) عن جرير بن عبد الله قال : « سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري » انفرد به مسلم .

القلبُ ، ثم يَعِدهُ ويمنيه ، ويوقد على القلب نار الشهوات ويلقي حطب المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة .

ـ ومنها : أنه يشغل القلب ، و ينسيه مصالحه ، ويحول بينه وبينها ؛ فينفرط عليه أمره ، ويقع في اتباع الهوى والغفلة ، قال الله تعالى[1] :

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَـوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ .

وإطلاق البصر يوجب هذه الأمور الثلاثة .

وقال أطباء القلوب : بين العين والقلب مَنْفذ وطريق ، فإذا خَربت العين وفسدت خَرب القلبُ وفسدَ وصار كالمزبلة التي هي محل النجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ ، فلا يصلح لسُكْنى معرفةِ الله ومحبتهِ ، والإنابة إليه ، والأنس به ، والسرور بقربه ، وإنما يسكن فيه أضدادُ ذلك .

وإطلاقُ البصر معصية لله عز وجل لقوله تعالى[2] :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وما سعد مَن سعد في الدنيا إلاّ بامتثال أمر الله ، ولا نجاة للعبد في الآخرة إلاّ بامتثال أوامر الله عز وجلّ .

وإطلاق البصر كذلك يُلبس القلبَ ظلمة ، كما أن غضّ البصر لله عز وجلّ يُلبسه نوراً ، وقد ذكر الله عز وجلّ آية النور[3] :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ .

بعد قوله عز وجلّ :

---

(١) الكهف آية (٢٨).
(٢) النور آية (٣٠).
(٣) من سورة النور آية (٣٥).

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم . . . ﴾ .

وإذا استنار القلب ، أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم ؛ أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان .

وإطلاقُ البصر كذلك يعمي القلبَ عن التمييز بين الحق والباطل ، والسنةِ والبدعة ، وغضهُ لله عز وجلّ يورثه فراسة صادقة يميز بها .

قال أحد الصالحين[1]: « من عمّر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغضّ بصره عن المحارم ، وكفّ نفسه عن الشبهات ، واغتذى بالحلال لم تخطىء له فراسة » .

والجزاء مِن جنس العمل ؛ فمن غضّ بصره عن محارم الله أطلق الله نورَ بصيرته .

---

(١) القائل هو: شاه بن شجاع الكرماني،كان من أبناء الملوك وتشمر للسلوك تخفق للإستباق متحققاً بالإشتياق، صحب أبا تراب النخشبي وأبا عبيد البسرى . قاله أبو نعيم في الحلية (١٠/٢٣٧)

فضول الطعام

قلةُ الطعام توجب رقةَ القلب، وقوةَ الفَهم، وانكسارَ النفس، وضعفَ الهوى والغضب، وكثرةُ الطعام توجب ضد ذلك .

عن المقدام بن مَعْد يكرِبَ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاءاً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لِنَفَسِه » رواه أحمد والترمذي وقال حسن[1] .

وفضول الطعام داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات والعبادات ، وحسبك بهذين شراً ، فكم من معصية جلبها الشبعُ وفضولُ الطعام ، وكم مِن طاعة حال دونها ، فمَن وقى شرّ بطنه فقد وقى شراً عظيماً . والشيطان أعظم ما يتحكم في الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ؛ ولهذا جاء في بعض[2] الآثار

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند (٤/١٣٢) والفتح الرباني (١٧/٨٨) في الأطعمة،والترمذي في الزهد (٧/٥١) إلاّ أنه عنده بلفظ (آدمي) بدلاً من (ابن آدم) و (أكلات) بدلاً من (لقيمات) وقال الترمذي حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي (٤/٣٣١).

(٢) ضعيف: «لا أصل له في كتب السنة» وذكره الغزالي في الإحياء فقال:
وفي خبر مرسل (٨/١٤٨٨) «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا. . .» =

« ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم » .

وقال بعض السلف : كان شباب يتعبدون مِن بني إسرائيل ، فإذا كان فطُرهم قام عليهم قائم فقال : « لا تأكلوا كثيراً ؛ فتشربوا كثيراً ؛ فتناموا كثيراً ؛ فتخسروا كثيراً » .

وقد كان النبي ﷺ وأصحابه يجوعون كثيراً ـ وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام ـ إلّا أن الله لا يختار لرسوله إلّا أكمل الأحوال وأفضلها ، ولهذا كان ابن عمر يتشبه به في ذلك مع قدرته على الطعام ، وكذلك كان أبوه من قبله ، ففي الصحيحين[1] : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة مِن خبز بَرٍ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض » .

قال ابراهيم بن أدهم : « من ضبط بطنه ضبط دينَه ، ومن ملك جوعَه ملك الأخلاقَ الصالحةَ ، وإن معصية الله بعيدةٌ من الجائع قريبةٌ من الشبعان » .

- قال العراقي : ـ وذكَر المصنف هنا أنه مرسل والمرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة. وذكره في الإحياء أيضاً في أسرار الصوم (٣/٤٢٢). وقال العراقي : متفق عليه من حديث صفية دون قوله «فضيقوا مجاريه». . .

(١) البخاري في الأطعمة (٩/٥٤٩) ومسلم في الزهد (١٨/١٠٥) .

فضول المخالطة

هي الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سَلبت المخالطةُ والمعاشرةُ مِن نعمةٍ ، وكم زَرَعت مِن عداوة ، وكم غَرست في القلبِ من حزازاتٍ تزول الجبالُ الراسياتُ وهي في القلوب لا تزول ؛ ففي فضول المخالطة خسارةُ الدنيا والآخرةِ . وإنما ينبغي للعبد أن يأخذَ من المخالطة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسامٍ متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينها دخل عليه الشر :

أحدها : مَن مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه ، هكذا على الدوام ، وهُم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه ، وأمراضِ القلوبِ وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كلُّ الربح .

القسم الثاني : مَن مخالطته كالدواء ، يحتاج إليه عند المرض ، فما دُمْتَ صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وما أنت تحتاج إليه من أنواع المعاملات والاستشارة ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك مِن مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم مِن .

القسم الثالث : وهم مَن مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه

وقوته وضعفه ، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن[1] ، وهو من لا تربح عليه دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلتْ فهي مرضُ الموت المخوف . ومنهم الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إذا تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يُحدِث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإذا سكت فأثقل من نصف الرحا[2] العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض [3] .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلي بواحدٍ من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ، فليعاشره بالمعروف ويعطيه ظاهره ويبخل عليه بباطنه حتى يجعل الله له من أمره فَرَجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : مَن مخالطة الهلك كله ، فهي بمنزلة أكل السم ، فإذا اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله العزاء ، وما أكثر هذا الضرب في الناس - لا كثّرهم الله - وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ ، الداعون إلى خلافها ، فيجعلون السنة بدعة والبدعة سنة ، وهذا الضرب لا ينبغي للعاقل أن يجالسهم أو يخالطهم ، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض .

نسأل الله لنا ولهم العافية والرحمة .

---

(١) زَمِنَ : مرض مرضاً يدوم زماناً طويلاً .

(٢) الرحا : الأداة التي يطحن بها وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب .

(٣) ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر .

أسباب حياة القلب وأغذيته النافعة

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة قلب العبد لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد ، وجميعَ المعاصي بمثابة الأطعمة المسمومة التي تفسد القلب ولابد ، والعبد محتاج إلى عبادة ربه عز وجلّ ، فقير إليه فقراً ذاتياً ، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة في أوقات متقاربة ، وإذا تبين له أنه تناول طعاماً مسموماً عن طريق الخطأ أسرع في تخليص جسده من الأخلاط الرديئة ، فحياة قلب العبد أولى بالإهتمام من جسده ، فإن كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغصة بالمرض في الدنيا . فحياة القلب تؤهله لحياة طيبة في الدنيا وسعادة غير محدودة في الآخرة ، وكذلك موت الجسد يقطعه عن الدنيا ، وموت القلب تبقى آلامه أبدُ الآباد .

وقال أحد الصالحين : « يا عجباً من الناس يبكون على من مات جسدُه ولا يبكون على من مات قلبه ، وهو أشد » . فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب ونخص هذه بالذكر ـ لضرورتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها ـ ذكرَ الله عز وجل ، وتلاوة القرآن ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبي ﷺ ، وقيامَ الليل .

ذكر الله وتلاوة القرآن

وضرورة الذكر للقلب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - : « الذكر للقلب كالماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا أخرج من الماء » وقد ذكر الإمام شمس الدين ابن القيم ما يقرب من ثمانين فائدة في كتابه « الوابل الصيب » ، فننقل بعضها بإذن الله تعالى ، وننصح بالعودة إلى الكتاب المذكور لعظيم نفعه . ومن هذه الفوائد :

أن الذكر قوت القلوب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته . ومنها : أنه يطرد الشيطان ، ويقمعه ، ويكسره ، ويرضي الرحمن عز وجلّ ، ويزيل الهم والغم عن القلب ، ويجلب له الفرح والسرور والبسط ، وينور القلب والوجه ، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، ويورثه محبة الله عز وجلّ ، وتقواه ، والإنابة إليه ، وكذلك يورث العبدَ ذكرَ الله عز وجلّ كما قال تعالى[1] :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ،

ولو لم يكن في الذكر إلّا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً ، و يورث جلاء القلب من الغفلة ، ويحط الخطايا .

ورغم أنه من أيسر العبادات ؛ فالعطاء والفضل الذي رتب عليه لم

---

(١) سورة البقرة آية (١٥٢) .

يرتب على غيره من الأعمال ، ففي الصحيحين[1] عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ - قال : « من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قديرٌ . في اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ رجل عمل أكثر منه » .

وفي الترمذي[2] عن جابر عن النبي ﷺ قال : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » . قال الترمذي حسن صحيح .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « لإن أُسبِّحَ الله تعالى تسبيحات أحب إليّ من أن أنفق عددهم دنانير في سبيل الله عز وجل » .

والذكر دواء لقسوة القلوب ؛ كما قال رجل للحسن يا أبا سعيد : أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : « أَذِبْه بالذكر » . وقال مكحول : « ذكْر الله شفاءٌ ، وذكْر الناس داءٌ » . قال رجل لسلمان أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن « ولذكر الله أكبر » .

وفي صحيح[3] البخاري : عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيِّ والميِّت » .

وفي الترمذي[4] : عن عبد الله بن بُسْر « أن رجلاً قال يا رسول

---

(١) البخاري في الدعوات (١١/٢٠١) ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/١٦) واللفظ للبخاري .

(٢) صحيح : رواه الترمذي في الدعوات (٩/٤٣٣) وقال : حسن غريب صحيح . وقال الهيثمي بعد أن عزاه للبزار (١٠/٩٤) : إسناده جيد ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/٥٠١) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (١١/٢٠٨) .

(٤) صحيح : الترمذي في الدعوات (٩/٣١٤) وقال حسن غريب . وأخرجه الحاكم في كتاب الدعاء (١/٤٩٥) وصححه ووافقه الذهبي . وليس هذا لفظ أحدها والحديث حسنه الحافظ في « تخريج الأذكار » (١/٩١-٩٠) .

الله : إن أبواب الخير كثيرة ولا أستطيع القيام بكلها ، فأخبرني بما شئت أتشبث بـه ولا تكثر علـيّ فَأَنْسَ قـال : « لا يزال لسـانك رطبـاً بذكـر الله تعالى » .

ودوام الذكر تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة ، وسبباً لاشتغال العبـد عن الكلام الباطل من الغيبة [1] والنميمة وغير ذلك ، فإما لسان ذاكر وإما لسان لاغ ، فمن فُتح له بابُ الذكر فقد فُتح له بابُ الدخول عـلى الله عز وجل ، فليتطهر وليدخل على ربه عز وجلّ ، يجد عنده ما يريد ، فإنْ وجدَ ربه عز وجلّ وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجلّ فاته كل شيء .

وللذكر أنواع : منها ذكر أسماء الله عز وجل ، وصفاته ، ومدحه ، والـثـنـاء عـليـه بهـا ، نحـو: « سبحان الله » ، و « الحمد لله » ، و « لا إلـه إلا الله » ؛ ومنها الخبر عن الله عز وجلّ بأحكام أسمائه وصفاته ، نحـو : الله عز وجل يسمع أصوات عبـاده ويرى حـركاتهم ، ومنهـا ذكر الأمـر والنهي كأن تقول : إن الله عز وجلّ أمر بكذا ، ونهى كذا .

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكرُ آلائه وإحسانه ، وأفضل الذكـر تلاوة القرآن ، وذلك لتضمنه لأدوية القلب وعـلاجه من جميـع الأمراض ، قـال الله تعالى [2] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وقال الله تعالى : [3]

---

(١) النميمة : هي نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد بغير رضـاه سواء كـان بعلمه أم لا .

الغيبـة : ذكرك أخـاك بما يكـره . فامتـازت النميمة بقصـد الإفساد، ولا يشتـرط ذلـك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك .

(٢) سورة يونس آية (٥٧) .

(٣) الإسراء آية (٨٢) .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأمراض القلب تجمعها أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يُبيِّنُ الحقَ من الباطلِ فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم ، والتصورِ ، والإدراكِ ، بحيث يرى الأشياء على ما هي .

فمن درس القرآنَ وخالط قلبَه ؛ أبصر الحق والباطلَ وميّزَ بينهما ، كما يُميز بعينيه بين الليل والنهار . وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ؛ بالتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة .

وقد صح [1] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سرّه أن يحب الله وَرسولَه فليقرأ في المصحف » .

والقرآن كذلك أعظم ما يقرب العبد لربه عز وجلّ ؛ قال خباب بن الأرت (رضي الله عنه) لرجل : « تقرب إلى الله ما استطعت واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه » .

وقال ابن مسعود (رضي الله عنه) : «من أحب القرآن أحب الله ورسوله»

وقال عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) : «لو طَهُرتْ قلوبُكم ما شبعتْ من كلام ربكم»

---

(١) ضعيف : بل هو منكر : قال ابن عدي : هذا لا يرويه عن شعبة غير الحر بن مالك وللحر عن شعبة وعن غيره عدة أحاديث ليست بالكثيرة ، فأما هذا الحديث عن شعبة بهذا الإسناد فمنكر « ا هـ » من التهذيب (٢/٢٢٢) ترجمة الحر بن مالك . قال الذهبي في الميزان : الحر بن مالك أبو سهل العنبري أتى بخبر باطل فذكره ثم قال : وإنما اتخذت المصاحف بعد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ا هـ (١/٤٧١) وتعقبه الحافظ في اللسان بأن هذا التعليل ضعيف ولكن الحر مجهول الحال ا هـ (٢/١٨٥) ورمز السيوطي في الجامع الصغير له بالضعف (٦/١٥٠) فيض القدير . وعزاه لأبي نعيم والبيهقي في (الشُعب) =

وبالجملة فأنفع شيء للعبد هو ذكر الله عز وجلّ[1]

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

وأفضل الذكر تلاوة كتاب الله عز وجلّ .

= قلت : وهو عند أبي نعيم في الحلية (٧/٢٠٩) من طريق الحر بن مالك عن شعبة عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً . قال أبو نعيم (غريب تفرد به الحر بن مالك) .

(١) الرعد آية ٢٨ .

الاستغفار

وهو طلب المغفرة، والمغفرة : هي وقاية شر الذنوب مع سترها، وقد كثر ذكر الاستغفار في القرآن، فتارة يؤمر به كقوله سبحانه وتعالى[1] :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وتارة يمدح أهله كقوله تعالى[2] :

﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾

وتارة يذكر أن الله يغفر لمن استغفره كقوله تعالى[3] :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللهَ يَجِدِ ٱللهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾

وكثيراً ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ عبارة عن طلب المغفرة باللسان .[4]

والتوبة عبارة عن : الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح ، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء فإن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه ، لا سيما إذا

---

(١) المزمل آية ٢٠ .

(٢) آل عمران آية ١٧ .

(٣) النساء آية ١١٠ .

(٤) قال الحافظ في الفتح (١٣/٤٧٢) : « ورأيت في حلبيات السبكي الكبير : الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان ، أو بالقلب ، أو بهما . فالأول فيه نفعٌ لأنه خيرٌ من السكوت ؛ ولأنه يعتاد قول الخير، والثاني نافعٌ جداً ، والثالث أبلغ منهما لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة ؛ فإن العاصي المُصِّرَّ يطلب المغفرة ولا يستلزم من ذلك وجود التوبة منه » .

خرج عن قلب منكسر بالذنوب أو صادف ساعةً من ساعات الإجابة كالأسحار[1] وأدبار الصلوات .

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه : يا بني عوّد لسانك «اللهم اغفر لي» فإن لله ساعات لا يَردُّ فيها سائلا . وقال الحسن : «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم؛ فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة» .

وفي صحيح[2] البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » وفي الصحيحين[3] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت النبي - ﷺ - قال : « إن عبداً أذنب ذنباً فقال : رب أذنبت ذنباً فاغفر ، فقال ربه : أَعَلِمَ عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً فقال : ربِّ أذنبت آخر فاغفره ، فقال : أَعَلِمَ عبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً - فقال : رب أذنبت آخر فاغفره لي ، فقال : أَعَلِمَ عَبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ثلاثاً فليعمل ما شاء » . وفي رواية لمسلم[4]« أنه قال في الثالثة (قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء) » . والمعنى ما دام على هذه الحال كلّما أذنب استغفر . والظاهر أن مراده الإستغفار المقرون بعدم الإصرار .

قالت عائشة[5] (رضي الله عنها) : « طوبى لمن وَجد في صحيفته

---

(١) جمع سَحَر، وهو آخر الليل قبيل الفجر.

(٢) البخاري في الدعوات (١١/١٠١).

(٣) البخاري في التوحيد (١٣/٤٦٦) واللفظ له، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧٥).

(٤) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧٦).

(٥) صحيح: ولكن ليس بموقوف على عائشة بل أخرجه ابن ماجه مرفوعا في الأدب (٢/١٢٥٤) من حديث عبد الله بن بُسْر وأبو نعيم في الحلية مرفوعا من حديث عائشة =

استغفاراً كثيراً » . وبالجملة فدواء الذنوب الإستغفار .

قال قتادة : إن هذا القرآن يـدلكم على دائكم ودوائكم فـأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالإستغفار .

وقـال عليّ ـ (كـرّم الله وجهـه)[1] ـ : مـا ألهم الله سبحـانـه عبـداً الاستغفارَ وهو يريد أن يُعذبَه .

= (١٠/٣٩٥) وقال البوصيري في الزوائد (إسناده صحيح ورجاله ثقات) . وعزاه المنذري في الترغيب للبيهقي أيضاً مرفوعاً وقال إسناده صحيح ا هـ (٢/٢٦٨) . وقال النووي في الأذكار روينا في ابن ماجه بإسناد جيد عن عبد الله بن بسر فذكره ا هـ (٥٤٧) . وأما الموقوف فعند أحمد في الزهد على أبي الدرداء كذا في الجامع الصغير (٤/٢٨٢) . من الفيض .

(١) والحكمة في استعمال « كرم الله وجهه » في حق عليّ بن أبي طالب دون غيره أنه لم يسجد لصنم قط فناسب أن يدعي له بما هو مطابق لحاله من تكرمة الوجه ، ويقال ذلك أيضاً لأبي بكر .

الدعاء

قال الله تعالى[1] : « ادعوني أستجب لكم » ، فأمرنا الله عز وجل بالدعاء ، ووعدنا بالإجابة ، ثم عقب بقوله عز وجل[2] :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ .

فسبحان الله العظيم ، ذي الكرم الفياض والجود المتتابع ؛ جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له ، وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم فجعله مستكبراً عليه .

وأخرج الترمذي[3] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من لم يسأل الله يغضب [4] عليه » .

وما أحسن قول القائل :

لا تسألن بني آدم حاجة ... وسل الذي أبوابهُ لا تحجبُ
الله يغضب إن تركتَ سؤالَه ... وإذا سألتَ بني آدم يغضبُ

---

(١) سورة غافر آية (٦٠) .
(٢) نفس الآية (٦٠) في آخرها .
(٣) حسن : أخرجه الترمذي في الدعوات (٣١٣/٩) واللفظ له ، وابن ماجة في الدعاء (١٢٥٨/٢) والحاكم في الدعاء (٤٩١/١) وصححه ووافقه الذهبي ، ورمز السيوطي له في الجامع الصغير بالحسن (١٢/٣) .
(٤) يغضب عليه : لأنه إما قانط وإما متكبر وكل واحد من الأمرين موجب للغضب .

وقال عز وجل[١] : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . . . الآية » . وقال تعالى[٢] :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

وعن النعمان بن بشير قال : قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ثم تلا الآية :

﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . صححه[٣] الترمذي .

والدعاء يقطع بقبوله لعموم الآيات التي قدمنا ذكرها ، وكذلك الأحاديث الآتية ـ إذا استوفى شروط الصحة ـ .

حديث سلمان عند أبي داود والترمذي وحسنه[٤] ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله حي كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبتين » . وحديث أنس عنه ﷺ أنه قال ؛ « لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد » ، صححه ابن حبان والحاكم والضياء[٥] .

---

(١) النمل آية (٦٢) .

(٢) البقرة آية (١٨٦) .

(٣) صحيح : الترمذي في الدعوات (٩/٣١١) وقال : حسن صحيح ، والحاكم في المستدرك (١/٤٩١) . وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه اهـ ووافقه الذهبي ، وقال النووي في الأذكار (٥٢٥) روينا بالأسانيد الصحيحة في سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة فذكره . وقال الحافظ في الفتح (١/٦٤) : أخرجه أصحاب السنن بسند جيد اهـ .

(٤) حسن : أخرجه الترمذي في الدعوات (٩/٥٤٤) واللفظ له ، وأبو داود في الدعاء (٤/٣٥٩) وسكت عليه ، ونحوه عند الحاكم في الدعاء (١/٤٩٧) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي . [قال الحافظ فى الفتح (١١/١٤٣) : سنده جيد] .

(٥) ضعيف : الحاكم في المستدرك (١/٤٩٣) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي ، وقال الحافظ في اللسان (٤/٣٢٨) : صححه الحاكم فتساهل في ذلك اهـ . ورواه ابن حبان في الأدعية (٥٩٦ موارد) .

وأخرج[1] أحمد ، والبزار ، وأبو يعلى ؛ بأسانيد جيدة ، والحاكم - وقال صحيح الإسناد - من حديث أبي سعيد الخدري ، أن النبي ﷺ وآله قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » .

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : « أنا لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل همّ الدعاء فمن ألهم الدعاء فإن الإجابة معه » .

(١) صحيح : قال المنذري في الترغيب رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة (٢/٢٧٢) اهـ وأخرجه الترمذي في الدعوات (٩/٣٢٣) وقال حسن صحيح غريب لكن من حديث جابر .

آداب الدعاء

- أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة : كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من الليل .

- أن يغتنم الأحوال الشريفة : كنزول المطر ، وزحف الصفوف في سبيل الله ، وحال السجود ؛ لحديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » رواه مسلم[1] وكذلك بين الأذان والإقامة ؛ لقوله ﷺ : « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يردّ » . رواه الترمذي وحسنه[2]

- أن يجزم بالدعاء ، ويوقن بالإجابة ، قال ﷺ : « لا يقولن أحدكم اللهمّ اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له » متفق عليه[3] من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) .

---

(١) مسلم في الصلاة (٤/٢٠٠).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في الصلاة (١/٦٢٤) أولاً ثم قال: حديث حسن صحيح اهـ وأخرجه في الدعوات (١٠/٥٣) ثانياً ثم قال: هذا حديث حسن اهـ. وسكت عليه أبو داود في الصلاة (٢/٢٢٤). وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣/٥٥٠): رواه النسائي في اليوم والليلة باسناد جيد اهـ. وصححه السيوطي في الجامع (٣/٥٤١).

(٣) البخاري في التوحيد (١٣/٤٤٨) واللفظ له، والدعوات (١١/١٣٩)؛ ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٧).

- أن يكون على طهارة ، مستقبل القبلة ، ويكرر الدعاء ثلاثـا . رواه مسلم [1]

- يبدأ بحمد الله عز وجل ، ويثني عليه بأسمائه ، وصفاته ، وآلائه ، ويثني بـالصـلاة عـلى رسـول الله ﷺ ثم يسمي حـاجتـه ، ويختم كـذلـك بالصلاة على رسول الله ﷺ وحمد الله عز وجلّ .

- يطيب مطعمه ، ولا يدعو بإثم ، ولا بقطيعة رحم .

- لا ينبغي تعجـل الإجـابـة ، ولا يقـول دعـوت ولم يستجب لي ، لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي » رواه البخاري [2] ومسلم .

قـال ابن بطال : « المعنى أنـه يسأم فيتـرك الـدعـاء فيكـون كـالمـانّ بدعائه . أو أنه أتى من الـدعـاء مـا يستحق به الإجـابة ، فيصـير كالمبخـل للرب الكريم الذي لا تعجزه الإجابة ، ولا ينقصه العطاء » . اهـ .

وفي هذا الحديث أدب من أداب الدعاء ، وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة ؛ لما في ذلك من الاستسلام والإنقياد وإظهار الإفتقار .

---

(١) مسلم في الجهاد (١٢/١٥٠) وهو قطعة من حديث طويل يحكيه ابن مسعود (رضي الله عنه) .
(٢) البخاري في الدعوات (١١/١٤٠) ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٥١) .

الصلاة على النبي « ﷺ »

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً » رواه مسلم[1] وغيره . . أي عشر صلوات وذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها والصلاة على النبي ﷺ من أعظم الحسنات .

قال ابن العربي : « إن قيل : قال الله تعالى[2]
﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ .

فما فائدة هذا الحديث ؟ قلنا : أعظم فائدة وذلك أن القرآن اقتضى أن من جاء بحسنة تضاعف عشرة ، والصلاة على النبي ﷺ حسنة بمقتضى القرآن أن يعطي عشر درجات في الجنة . فأخبرأن الله تعالى يصلّي على من صلّ على رسوله عشراً ، وذِكْرُ الله للعبد أعظمُ من الحسنة مضاعفة ، ويحقق ذلك أن الله تعالى لم يجعل جزاء ذكره إلاّ ذِكْرَه ، وكذلك جعل جزاء ذكر نبيه ذكر من ذكره » ا . هـ .

قال العراقي : ـ ولم يقتصر على ذلك حتى زاده كتابة عشر حسنات ، وحط عنه عشر سيئات ، ورفعه عشر درجات ، كما ورد في الأحاديث .

(١) مسلم في الصلاة (٤/١٢٨).
(٢) سورة الأنعام الآية (١٦٠).

منها : عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : « من ذكرت عنده فليصلّ عليّ ، ومن صلّى عليّ مرة واحدة صلّى الله عليه بها عشراً » وفي رواية « من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات » . رواه أحمد ، والنسائي واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه[1] . قوله « من ذكرت عنده فليصل عليّ » ظاهر الأمر الوجوب بدليل قوله في الحديث الآخر « البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليّ » النسائي والترمذي وابن حبان[2] .

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال : « إن لله ملائكة سيّاحين يبلغوني عن أمتي السلام » رواه أحمد ، والنسائي[3] .

وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » رواه الترمذي ، وابن حبان في صحيحه[4] .

---

(١) صحيح : ـ رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة ، رقم (٣٨٢) من حديث أنس . قال النووي في الأذكار إسناده جيد ، وتعقبه ابن حجر في نتائج الأفكار بأن فيه انقطاعاً . وعزا الهيثمي في المجمع (١٠/١٦٣) القطعة الأولى من الحديث للطبراني في الأوسط وقال رجاله رجال الصحيح . وأخرج مسلم في صحيحه القطعة الأخيرة منه (٤/١٢٧) من حديث أبي هريرة .

(٢) صحيح : ـ النسائي في فضائل القرآن رقم (١٢٥) . ورواه الترمذي في الدعوات (٩/٥٣١) من حديث علي بن أبي طالب وقال : حسن غريب صحيح اهـ وابن حبان ص (٥٩٤) موارد . وأحمد في المسند (١/٢٠١) وقال الشيخ أحمد شاكر (١٧٣٦) إسناده صحيح (اهـ) والحاكم في الدعاء (١/٥٤٩) وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) صحيح : رواه أحمد (١/٣٨٧) وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح رقم (٣٦٦٦) . والنسائي في السهو (٣/٤٣) وقال ابن القيم في جلاء الإفهام ص ٢٣ : إسناده صحيح .

(٤) حسن : رواه الترمذي في الوتر (٢/٦٠٧) وقال : حسن غريب اهـ . وابن حبان ص ٥٩٤ موارد .

ويستحب كثرة الصلاة على رسول الله ﷺ يوم الجمعة لحديث أوس ابن أوس (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ ، قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت[1] يعني بليت ؟ فقال : إن الله عزّ وجلّ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . **رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه وغيرهم**[2] .

أما صيغة الصلاة على رسول الله ﷺ فورد في مسلم[3] بسنده عن أبي مسعود الأنصاري قال : « أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد ابن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » .

---

(١) أَرَمْتَ : بفتح الهمزة والراء وسكون الميم ، وروى بضم الهمزة وكسر الراء : أي بليت .
(٢) صحيح : ابن ماجة في الجنائز (١/٥٢٤) وأبو داود في الصلاة (٣/٣٧٠) وسكت عليه . وأحمد في الفتح الرباني (٦/٩) وصححه الحاكم في الجمعة (١/٢٧٨) ووافقه الذهبي .
(٣) مسلم : في الصلاة (٤/١٢٣) .

قيام الليل

أما الآيات فقوله تعالى[1] « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه . . . » . وقوله عز وجلّ [2]

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَـٰماً ﴾ .

أما الأخبار : قوله ﷺ « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » متفق عليه[3] من حديث أبي هريرة . وثبت في الصحيحين[4] وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يصلي ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشر ركعة ، يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة » .

وفي الخبر إنه ذكر عنده الرجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال ﷺ : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه » ، متفق عليه[5] من حديث ابن مسعود . (رضي الله عنه) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « يعقد الشيطان

---

(١) المزمل آية (٢٠).

(٢) الفرقان آية (٦٤).

(٣) بل انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري فرواه في الصيام (٨/٥٤).

(٤) البخاري في الوتر (٢/٤٧٨) ومسلم في المسافرين (٦/١٦).

(٥) البخاري في التهجد (٣/٢٨) ومسلم في المسافرين (٦/٦٣).

على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإذا استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان » متفق عليه [1] .

الآثار : كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دويّ كدوي النحل حتى يصبح .

قيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : « لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره » .

وقال : « إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل » .

وقال رجل لأحد الصالحين : لا أستطيع قيام الليل فصف لي دواءاً ، فقال : لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل .

و يروى عن سفيان الثوري أنه قال : « حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته » وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم هجوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال أبو سليمان : « أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا » .

وقال ابن المنكدر: « ما بقي من لذات الدنيا إلاّ ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، وصلاة الجماعة » .[2]

---

(١) البخاري في التهجد (٣/٢٤) ومسلم في المسافرين (٦/٦٥) .

(٢) وأخرج أبو نعيم في الحلية (٦١٧٠) من طريق يحيى بن عبد الله عن الأوزاعى عن حسان ابن عطية قال: «من أطال قيام الليل، يهون عليه طول القيام يوم القيامة » .

الزهد في الدنيا وبيان حقارتها

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس ، فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة[1] .

وهذا الحديث يدل على أن الله يحب الزاهد في الدنيا ، وقالوا : إذا كانت محبة الله هي أفضل المقامات فالزهد في الدنيا هو أفضل الأحوال .

« والزهد » : هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وأما العلم المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ . فمن عرف أن ما عند الله باقٍ ، وأن الآخرة خير وأبقى كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج . فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الإنقراض والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له ، وبقدر اليقين

(١) حسن : قال النووي في الرياض حديث رقم (٤٧٥) : حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة قال الصنعاني في سبل السلام (٤/١٧٧) : وقد حسن النووي الحديث كأنه لشواهده اهـ وقال الحافظ في بلوغ المرام : سنده حسن اهـ . وهو عند ابن ماجه (٢/١٣٧٣) في الزهد .

بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع ، وقد مدح القرآن الزهد في الدنيا وذمّ الرغبة فيها ؛ فقال تعالى[1] :

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

وقال تعالى[2] :

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ .

وقال[3] :

﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ .

والأحاديث في ذم الدنيا وبيان حقارتها عند الله كثيرة جداً .

ففي صحيح مسلم[4] : عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ « مرّ بالسوق والناس كَنَفَتَيْه ، فمرّ بجدي أسكّ ميت فتناوله فأخذ بأذنه ، فقال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسكّ فكيف وهو ميت ؟ فقال والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

وفيه[5] أيضاً عن المستورد بن شدّاد الفهْري عن النبي ﷺ قال : « ما الدنيا في الآخرة إلّا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليمّ فلينظر بم يرجع » . وخرّج الترمذي[6] من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ

---

(١) سورة الأعلى آية (١٦ ، ١٧) .
(٢) الأنفال آية (٦٧) .
(٣) الرعد آية (٢٦) .
(٤) مسلم في الزهد (١٨/٩٣) .
(٥) مسلم في الجنة ونعيمها (١٧/١٩١) .
(٦) صحيح : الترمذي في الزهد (٦/٦١١) وقال صحيح غريب .

قال : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » . وصححه .

فالزهد : هو الإعراض عن الشيء لاستقلاله ، واحتقاره ، وارتفاع الهمة عنه ، يقال شيء زهيد أي قليل حقير .

قال يونس بن ميسرة : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء وأن يكون مادحك وذامّك في الحق سواء »[1].

ففسَّر الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح ، ولهذا كان أبو سليمان يقول : لا تشهد لأحد بالزهد .

أحدها : أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه . وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته ، قيل لأبي حازم الزاهد : ما مالُك ؟ ، قال « مالان لا أخشى معهما الفقر : الثقة بالله ، واليأس مما في أيدي الناس » . « وقيل له أما تخاف الفقر ؟ ، فقال : أنا أخاف الفقر ومولاي له ما في السموات ، وما في الأرض ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ؟ » .

قال الفضيل : أصل الزهد : الرضى عن الله عز وجلّ ، وقال : القنوع هو الزاهد ، وهو الغنى ؛ فمن حقق اليقين ، وثق بالله في أموره كلها ، ورضي بتدبيره له ، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءاً وخوفاً ، وضعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة ، ومن كان كذلك كان زاهداً حقاً ، وكان من أغنى الناس ؛ وإن لم يكن له شيء من الدنيا . كما قال عمّار (رضي الله عنه) : « كفى بالموت واعظاً ، وكفى باليقين غنىً ، وكفى بالعبادة شغلاً » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « اليقين أن لا تُرضي الناس

(١) راجع الاستدراك ص ١٤٩ .

بسخط الله ، ولا تحسد أحداً على رزق الله ، ولا تلم أحداً على مالم يؤتك الله ، فإن رزْقَ الله لا يسوقه حرصُ حريص ، ولا يرده كراهيةُ كاره ، فإن الله بقسطه ، وعلمه ، وحكمته ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضى ، وجعل الهمّ والحزن في السخط والشّك » .

الثاني : أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة في دنياه : من ذهاب مال ، أو ولد ، أو غير ذلك ، أرغب في ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له . وهذا أيضاً ينشأ من كمال اليقين .

قال علي (كرّم الله وجهه) : « من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » . وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس .

الثالث : أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق . وإذا عظمت الدنيا في قلب العبد اختار المدح وكره الذم ، وربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذم ، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح .

فمن استوى عنده حامده وذامه في الحق دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه وامتلائه من محبة الحق ، وما فيه رضى مولاه ، كما قال ابن مسعود : (رضي الله عنه) : « اليقين أن لا ترضى الناس بسخط الله » .

وقد مدح الله عز وجلّ الذين يجاهدون في سبيله ، ولا يخافون لومة لائم . وقد ورد عن السلف روايات أخرى في تفسير الزهد .

قال الحسن : « الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هو أزهد مني » . وسئل بعضهم ـ أظنه الإمام أحمد ـ عمن معه مال هل يكون زاهداً ؟ ، قال : « إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد » .

وقال إبراهيم بن أدهم : « الزهد ثلاثة أقسام : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة .

فأما الزهد الفرض : فالزهد في الحرام ، **والزهد الفضل** : فالزهد في الحلال ، **والزهد السلامة** : فالزهد في الشبهات » .

وكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد أيضاً ، ولكن في الآخرة .

قال رجل لأحد الصالحين : ما رأيت أزهد منك ، قال : أنت أزهد مني لقد زهدتُ في دنيا لا بقاء لها ولا وفاء ، وأنت زهدت في الآخرة ، فمن أزهد منك .

ولكن العادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد في الدنيا والزهد يكون فيما هو مقدور عليه ولذا قيل لابن المبارك[1] : يا زاهد قال : « الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففيما ذا زهدت » .

قال الحسن البصري : « أدركت أقواماً وصحبت طوائف ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب ؛ كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطْوَلَه ثوبٌ ، ولم يُنصب له قدرٌ ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر من بيته بصنعةِ طعام قط ، فإذا كان الليل ، فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوهَهم ، تجري دموعُهم على خُدودهم ، يُناجون ربَهم في فَكاك رقابهم ؛ كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ،

---

(١) وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مالك بن دينار قال: الناس يقولون مالك بن دينار زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها (٥/٢٥٧) اهـ. فلا أدري أوقع لابن المبارك مثله أم لا؟!

وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها ، فلم يزالوا على ذلك ، ووالله : ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلّا بالمغفرة ؛ ورحمة الله عليهم ورضوانه » .

درجات الزهد

الدرجة الأولى : أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ ، وقلبه إليها مائل ، ونفسه إليها ملتفتة ، ولكن يجاهدها ويكفها ، . . وهذا يسمى متزهد .

الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها ، بالإضافة إلى ما طمع فيه ، ولكنه يرى زهده ، ويلتفت إليه ، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين .

الدرجة الثالثة : أن يزهد في الدنيا طوعاً ، ويزهد في زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً ؛ فيكون كمن ترك خَزَفَةً وأخذ جوهرةً .

ويمثل صاحب هذه الدرجة بمن منعه من الدخول على الملك كلبٌ على بابه ، فألقى إليه لقمةً من خبز فشغله بها ؛ ودَخَل على الملك ، ونال القرب منه فالشيطانُ كلبٌ على باب الله عز وجلّ ، يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوحٌ ، والحجابَ مرفوعٌ ، والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها .

أحوال النفس ومَحاسبتها

اتفق السالكون إلى الله على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم - على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الربّ، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلاّ بعد إماتتها وتركها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين: قسمٍ ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته، وصار طوعاً لها تحت أوامرها. وقسمٍ ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعاً لهم، منقادةً لأوامرهم.

قال بعض العارفين: - انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم، فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال الله تعالى: [1]

﴿وَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

والنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والربّ يدعو عبدَه إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلبُ بين الداعيين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء، وقد وصف الله سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات: المطمئنة، واللوامة، والأمارة

(١) النازعات آية (٣٧: ٤٠).

بالسوء، فاختلف الناس: هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها، أم للعبد ثلاثة أنفس.

فالأول قول الفقهاء والمفسرين، والثاني قول كثير من أهل التصوف، والتحقيق أنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها.

النفس المطمئنة:

إذا سكنت النفس إلى الله عز وجلّ واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه؛ فهي مطمئنة، وهي التي يقال لها عند الوفاة[1].

﴿ يَـٰأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

قال ابن عباس (رضي الله عنه): المطمئنة المصدقة، وقال قتادة: هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله، وصاحبها يطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبر به عن رسوله - ﷺ -، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً. ثم يطمئن إلى قدر الله عز وجل فيسلم له ويرضى، فلا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه؛ فلا ييأس على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه، وقبل أن يخلق؛ قال تعالى[2]:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَمَن يؤْمِنْ بِٱللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾.

قال غير واحد من السلف هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصاً

(١) الفجر آية (٢٧، ٢٨).
(٢) التغابن آية (١١).

ونصحاً، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى، ولا تقليداً، ولا يساكن شبهة تعارض خبره، ولا شهوة تعارض أمره، بل إذا مرّت به أنزلها منزلة الوساوس التي لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها، فهذا كما قال[1] النبي ﷺ: «صريح الإيمان»، وكذلك يطمئن من قلق المعصية، وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها.

فإذا اطمأن من الشكّ إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة.

وأصل ذلك كله هي اليقظة؛ التي كشفت عن قلبه سَنَةَ الغفلة، وأضاءت له قصور الجنة، فصاح قائلاً:

ألا يا نفسُ ويحَكِ ساعديني ... بسعي منكِ في ظُلَم الليالي
لعلكِ في القيامةِ أن تفوزي ... بطِيب العيشِ في تلكَ العلالي

فرأى في ضوء هذه اليقظة ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً[2]:

﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾

فاستقبل بقية عمره مستدركاً ما فات، محيياً ما أمات، مستقبلاً ما

---

(١) ومناسبة ذلك ما رواه مسلم في كتاب الإيمان (٢/١٥٣) عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان.

(٢) الآية (٥٦) من سورة الزمر.

تقدم له من العثرات، منتهزاً فرصة الإمكان - التي إن فاتت فاته جميع الخيرات -، ثم يلحظ في نور تلك اليقظة ونور نعمة ربه عليه، ويرى أنه آيسٌ من حصرها وإحصائها، عاجزٌ عن اداء حقها، ويرى في تلك اليقظة عيوب نفسه، وآفات عمله، وما تقدم له من الجنايات، والإساءات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فتنكسر نفسه، وتخشع جوارحه، ويسير إلى الله ناكسَ الرأسِ بين مشاهدة نعمه، ومطالعة جناياته، وعيوب نفسه، ويرى أيضاً في ضوء تلك اليقظة عزةَ وقته، وخطره، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة، وفي حفظه الربح والسعادة.

فهذه آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة التي ينشأ منها سفرها إلى الله والدارِ الآخرة.

النفس اللوامة :

قالت طائفة : هي التي لا تثبت على حال واحدة ، فهي كثيرة التقلب والتلون ، فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتتقي .

وقالت أخرى: هي نفس المؤمن، قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلاّ يلوم نفسه دائماً يقول: ما أردت هذا؟ لم فعلت هذا؟ كان هذا أولى من هذا؟ أو نحو هذا الكلام.

وقالت أخرى: اللوم يوم القيامة؛ فإن كلَّ أحدٍ يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته، وإن كان محسناً على تقصيره.

يقول الإمام ابن القيم: وهذا كله حق.

واللوامة نوعان: لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة.

- **اللوامة الملومة**: - هي النفس الجاهلة، الظالمة، التي يلومها الله وملائكته.

- اللوامة غير الملومة: - وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله - مع بذله جهده -، فهذه غير ملومة، وأشرف النفوس من لامت نفسها من طاعة الله. واحتملت ملام اللوام في مرضاته، فلا تأخذها في الله لومة لائم، فهذه قد تخلصت من لوم الله. وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها، ولم تحتمل في الله ملام اللوام، فهي التي يلومها الله عز وجلّ.

النفس الأمارة بالسوء:

وهذه النفس المذمومة، فإنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها، فما تخلَّص أحد من شرها إلاّ بتوفيق الله، كما قال تعالى[1] حاكياً عن امرأة العزيز:

﴿ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال عز وجل[2]:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ وكان ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة «إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»[3]. فالشرُّ كامنٌ في النفس، وهو يوجب سيئات الأعمال، فإذا خلّى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها، وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله.

---

(١) يوسف آية (٥٣).

(٢) النور آية (٢١).

(٣) صحيح: أخرجه ابو داود في النكاح (٦/١٥٣) وابن ماجه في النكاح ايضا واللفظ له (١/٦٠٩). واسناده صحيح متصل من طريق أبي الأحوص عن عبد الله، قاله الشيخ شاكر في تحقيق المسند (٣٧٢١).

فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وخلاصة القول: إن النفس واحدة تكون: أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها.

والنفس المطمئنة قرينها المَلَك، يليها، ويسددها، ويقذف فيها الحقَ، ويرغبها فيه، ويريها حسنَ صورته، ويزجرها عن الباطل، ويزهدها فيه، ويريها قبحَ صورتِه؛ وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئنة. وأما النفس الأمارة فجُعل الشيطانُ قرينُها، وصاحبُها الذي يليها، فهو يَعِدُها، ويمنيها، ويقذف فيها الباطلَ، ويأمرها بالسوء، ويزينه لها، ويطيل في الأمل، ويريها الباطل في صُورةٍ تقبلها وتستحسنها.

فالنفس المطمئنة والملك يقتضيان من النفس المطمئنة: التوحيد، والإحسان، والبر، والتقوى، والتوكل، والتوبة، والإنابة، والإقبال على الله، وقصر الأمل، والاستعداد للموت وما بعده.

والشيطانُ وجندهُ من الكفرة يقتضيان من النفس الأمّارة ضد ذلك.

وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمّارة، فلو وصل منها عمل واحد لنجا به العبد، ولكن أبت الأمّارة والشيطان أن يَدَعا له عملا واحداً يصل إلى الله، كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه: «والله لو أعلم أن لي عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يَقْدُمُ على أهله»، وقال عبد الله بن عُمَر (رضي الله عنه): «لو أعلم أن الله قبل مني سجدةً واحدةً لم يكن غائبٌ أحبَّ إليّ من الموت».

وقد انتصبت الأمّارة في مقابلة المطمئنة، فكلما جاءتْ به تلك من خير ضاهتْها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تَفسدَه عليها، وتريه حقيقةَ الجهادِ في صورةِ تقتيلِ النفس، وتنكح الزوجة، و يصير الأولاد يتامى، و يقسم المال، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه، وخلو اليد منه، واحتياجه إلى الناس، ومساواته للفقير.

محاسبة النفس

وعلاج استيلاء النفس الأمارة على قلب المؤمن محاسبتها ومخالفتها، كما روى الإمام أحمد[1]: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت؛ والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله». ودان نفسه: ـ أي حاسبها.

وذكر الإمام أحمد[2] عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر «يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية»».

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه؛ يحاسب نفسه لله؛ وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا؛ وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة.

---

(١) ضعيف: إسناده ضعيف من أجل أبي بكر بن أبي مريم، أخرجه الترمذي وغيره في صفة القيامة (٧/١٥٥) وحسنه؛ والحاكم في المستدرك كتاب الإيمان (١/٥٧) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله أبو بكر بن أبي مريم واهٍ» اهـ. وهو في المسند (٤/١٢٤) وأخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات الزهد (ص ٣٨) وفيه ابن أبي مريم أيضا.

(٢) رواه أحمد في الزهد (ص ١٢٠)، وأخرج نحوه الترمذي موقوفاً أيضاً على عمر بن الخطاب وأورده بصيغة التمريض بعد هذا الحديث (٧/١٥٦). وكذلك أخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/٣٠٩) في الرقاق. وأبو نعيم في الحلية (١/٥٢). وعزاه ابن كثير في التفسير سورة الحاقة آية (١٨) (٦/١٠٣) لابن أبي الدنيا. قلت: هو عنده فى (محاسبة النفس) الحديث الثاني وسنده جيد إن كان ثابت بن الحجاج الراوى عن عمر سمعه منه.

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا!! مالي ولهذا؟! والله لا أعود إلى هذا أبداً. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كلّه»[1].

قال مالك بن دينار: «رحم الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا، ألستِ صاحبة كذا، ثم ذمّها، ثم خَطَمَها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجلّ؛ فكان لها قائداً».

فحق على الحازم المؤمن بالله وباليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييقِ عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها، فكل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفسية يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسرانٌ عظيم، لا يسمح بمثله إلاّ أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن. قال تعالى[2]:

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾

ومحاسبة النفس نوعان: ـ نوع من قَبل العمل ونوع بعده.

أما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانُه على تركه.

---

(١) أنظر البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (٩/٢٧٢)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٢/١٥٧).
(٢) آل عمران آية (٣٠).

قال الحسن رحمه الله[1]: «رحم الله عبداً وقف عند همه؛ فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره تأخّر».

وشرح بعضهم هذا فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهمّ به العبد، وقف أولاً ونظر: هل ذلك العمل مقدور عليه، أو غير مقدور، ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدوراً لم يقدم عليه، وإن كان مقدوراً عليه وقف وقفة أخرى، ونظر: هل فعلُه خير له من تركه، أم تركه خير له من فعْلُه، فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجلّ وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق، فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى: ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاج إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي - ﷺ - عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار؛ وإن وجده معاناً عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله، ولا يفوت النجاح إلّا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلّا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

---

(١) ويؤيده ما في صحيح مسلم في كتاب الإيمان (٢/١٨): من حديث أبي هريرة مرفوعاً «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» قال النووي: معناه أنه إذا أراد أن يتكلم فإن كان ما يتكلم به خيراً محققاً يثابُ عليه واجباً أو مندوباً فليتكلم، وإن لم يظهر له أنه خيرٌ يثاب عليه فيمسك عن الكلام سواء ظهر له أنه حرام أو مكروه أو مباح مستوي الطرفين... ثم قال: وقد أخذ الإمام الشافعي معنى الحديث فقال إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ظهر له فيه ضرر أو شكّ فيه أمسك. ا هـ».

والنوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حقِّ الله تعالى؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة ستة أمور وهي:

الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول ﷺ، وشهود مشهد الإحسان، وشهود مِنَّةَ الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله. فيحاسب نفسه هل وفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركُه خيراً له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح لِمَ فعله، وهل أراد به الله تعالى والدارَ الآخرة؛ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجِلَها؛ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وآخر ما عليه الإهمال، وترك المحاسبة، والإسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور، يغمض الواحد عينيه عن العواقب ويتكل على العفو؛ فيهمل محاسبةَ نفسه والنظرَ في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعةُ الذنوب، وأَنِسَ بها وعسر عليه فِطَامُها.

وجماعُ ذلك أن يحاسِبَ نفسَه أولاً على الفرائض فإن تذكَّر فيها نقصاً تداركَه إما بقضاءٍ أو إصلاحٍ، ثم يحاسبُها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبةِ والاستغفارِ والحسناتِ الماحيةِ. ثم يحاسب نفسه على الغفلةِ، فإن كان قد غفل عما خُلِق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت به رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه؛ ماذا أردتُ بهذا، ولِمَ فعلتُه، ولمن فعلتُه، وعلى أي وجه فعلتُه، ويعلم أنه لا بدَّ أن يُنْشَر لكل حركةٍ وكلمةٍ ديوانان: لمن

فعلتَـه؟ وكيف فعلتَه؟ فـالأول سؤال عن الإخـلاص، والثـاني سؤال عن المتابعة قال الله تعالى[1]:

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾.

فإذا سُئل الصادقون عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم، فما الظنُّ بالكاذبين.

---

(١) الأحزاب آية (٨).

فوائد محاسبة النفس

١ ـ الإطلاع على عيوب نفسه: ومن لم يطلع على عيوب نفسه لم يمكنه إزالته، قال يونس بن عبيد: «إني لأجد مائة خَصْلة من خِصَال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدةً».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب رِيحٌ ما قدر أحدٌ أن يجلسَ إليّ» وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء[1]: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون أشدّ لها مقتاً».

٢ ـ أن يعرف حق الله تعالى عليه؛ فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والإنكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلاّ بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر.

---

(١) في الزهد ص (١٣٤). وفي إطلاقه العزو لأحمد تجوز لأن المراد عند الإطلاق مسنده لا زهده.

وقال العراقي في (تخريج الإحياء) (١/٥٥): رواه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال: لا يصح مرفوعاً.

قلت: وعند أبي نعيم فى [الحلية] (٥/٢١٢) نحوه ولكن عن خالد بن معدان من قوله.

الصبر

إن الله سبحانه جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً غالباً لا يهزم، وحصناً حصيناً لا يهدم؛ فهو والنصر أخوان شقيقان، وقد مدح الله عز وجلّ في كتابه الصابرين، وأخبر أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز، وفتحه المبين، فقال تعالى:[1]

﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة، وفازوا بها بنعمه الباطنة والظاهرة، وجعل سبحانه الإمامة في الدين منوطةً بالصبر واليقين فقال تعالى[2] - وبقوله اهتدى المهتدون -:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

وأخبر تعالى أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين؛ فقال تعالى:[3]

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾

---

(١) الأنفال آية (٤٦).
(٢) السجدة آية (٢٤).
(٣) آية (١٢٦). النحل.

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط، فقال تعالى: (١)

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى، فقال تعالى: (٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وأخبر عن محبته لأهله، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين، فقال تعالى: (٣)

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

وبشَّر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحَاسدون: فقال تعالى: (٤)

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾.

وجعل الفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النار، لا يحظى به إلاّ الصابرون، فقال عز وجلّ: (٥)

---

(١) آل عمران آية (١٢٠).
(٢) آل عمران آية (٢٠٠).
(٣) آل عمران آية (١٤٦).
(٤) البقرة آية (١٥٥/ ١٥٧).
(٥) المؤمنون آية (١١١).

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

وخصّ في الإنتفاع بآياته أهلَ الصبر، وأهلَ الشكر، تمييزاً لهم بهذا الحظ الموفور، فقال[1] في أربع آيات من كتابه جل وعلا:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

والصبر آخية المؤمن التي يجول ثم يرجع إليها، وساقُ إيمانِه التي لا اعتماد له إلّا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف؛ فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهه خَسِر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منها إلّا بالصفقة الخاسرةِ، فخير عيشٍ أدركه السعداءُ بصبرهم، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم فساروا بين جناحي الصبر والشكر إلى جنات النعيم «وذلك فضل الله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

ولما كان الإيمان نصفين: نصفٌ صبر، ونصفٌ شكر؛ كان حقيقاً على من نصح نفسَه، وأحب نجاتها، وآثر سعادتَها، أن لا يهمل هذين الأصلين، وأن يجعل سيره إلى الله بين هذين الطريقين؛ ليجعلَه الله يوم لقائه مع خير الفريقين.

(١) إبراهيم آية (٥). ولقمان آية (٣١)، وسبأ آية (١٩)، والشورى آية (٣٣).

معنى الصبر وحقيقته

الصبر لغة: هو المنع والحبس، وشرعا فهـو حبس النفس عن الجـزع واللســان عن التشكي، والجـوارح عن لـطم الخـدود وشق الجيـوب، ونحوهما.

وقيل: هو خلق فـاضل من أخـلاق النفس يمتنع بـه من فعل مـا لا يحسن ولا يجمـل، وهو قـوة من قوى النفس التي بهـا صلاح شـأنها وقـوام أمرها.

سئل عنه الجنيد فقال: «تجرع المرارة من غير تعبُّس».

وقال ذو النون المصري: «هو التباعد عن المخالفات، والسكونُ عند تجرُعُ غُصَصَ[1] البلية، وإظهارُ الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة».

وقيل: «الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب».

وقيل: «هو الغنى في البلوى بلا ظهور شكوى».

ورأى أحد الصالحين رجلًا يشتكي إلى أخيه فقال له: يا هـذا، والله

(١) غصص: بضم المعجمة وفتح المهملتين؛ جمع غُصَّة: وهي ما اعترض الحلق من طعام أو شراب.

ما زدتَ على أن شكوتَ من يرحمك إلى مَن لا يرحمك.

وقيل في ذلك:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكي الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ[1]

والشكوى نوعان: شكوى إلى الله عز وجلّ وهذه لا تنافي الصبر، كقول يعقوب[2] عليه السلام:

﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

مع قوله: [3]

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

وقول[4] سيد الصابرين صلواتُ الله وسلامه عليه: «اللهّم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي....».

والنوع الثاني: شكوى المبتلي بلسان الحال أو المقال، فهذه لا تجامع الصبر بل تضادّه وتبطله.

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر، كما قال النبي[5] ﷺ: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي».

ولا يناقض هذا قوله ﷺ[6]: «وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسعَ

---

(١) قال زين العابدين:

وإذا بليت بعسرة فاصبر لها ... صبر الكريم فإنَّ ذلك أحزمُ
لا تشكونّ إلى الخلائق إنما ... تشكي الرحيمَ إلى الذي لا يَرحمُ

(٢) يوسف آية ٨٦.

(٣) يوسف آية ٨٣.

(٤) ضعيف: قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٥): رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة. وبقية رجاله ثقات. من حديث عبد الله بن جعفر. وانظر تفسير ابن كثير (٦/٢٩٢) الأحقاف (٢٩).

(٥) ضعيف: وهو جزء من الحديث قبله.

(٦) البخاري في الزكاة (٣/٣٣٥) ومسلم في الزكاة (٧/١٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري (رضى الله عنهما).

من الصبر». فإن هذا بعد نزول البلاء، فساحة الصبر أوسع الساحات، أما قبل نزوله فساحة العافية أوسع.

والنفس مطية العبد التي يسير عليها إلى الجنة أو النار، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطامٌ ولا زمامٌ شردت في كل مذهب. وحُفِظَ مِن خُطَبِ الحجّاج: «إقرعوا هذه النفوسَ فإنها طلعة إلى كل سوء، فرحم الله امرءاً جعل لنفسه خطاماً وزماماً فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله، فإن الصبرَ عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذابه».

والنفس لها قوتان: قوة الإقدام وقوة الإحجام، . . . فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره، ومن الناس من يصبر على قيامِ الليل ومشقةِ الصيام، ولا يصبر على نظرة محرمة ومنهم من يصبر على النظر والإلتفات إلى الصور، ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد.

وقيل: الصبر شجاعة النفس، ومن ها هنا أخذ القائل قوله: «الشجاعة صبر ساعة». والصبر والجذع ضدّان، كما أخبر سبحانه وتعالى[1] عن أهل النار:

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾.

(١) إبراهيم آية (٢١).

أقسام الصبر باعتبار مُتَعلّقِه

والصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقضية حتى لا يتسخطها، وهذه الأقسام هي التي قيل فيها:

«لا بد للعبد من أمر يفعله، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه».

والصبر أيضاً نوعان: إختياري واضطراري، والإختياري أكمل من الإضطراري، فإن الإضطراري يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري، ولذلك كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز أعظم من صبره على ما ناله من أخوته لمّا ألقَوْه في الجب.

فالإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال لأنه يتقلب بين أمرٍ يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهيٍ يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدرٍ يجري عليه اتفاقاً، ونعمةٍ يجب شكر المنعم بها عليه واذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه؛ فالصبر لازم له إلى الممات.

وكل ما يَلْقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين: أحدهما يوافق هواه ومراده، والآخر يخالفه، وهو محتاج إلى الصبر في كلٍ منهما، أما النوع الموافق لغرضه كالصحة، والجاه، والمال، فهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه:

أحدهما: أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا تحمله على البطر، والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

والثاني: أن لا ينهمك في نيلها.

والثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها.

والرابع: أن يصبر عن صرفها من الحرام. قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلاّ الصدّيقون».

وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتلينا بالضرّاء فصبرنا، وابتلينا بالسرّاء فلم نصبر!!؛ ولذلك يحذر الله عباده من فتنة المال، والأزواج، والأولاد، فقال تعالى[1]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

أما النوع الثاني المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبطَ باختيار العبد كالطاعات والمعاصي؛ أو لا يرتبط أوْلُه باختياره كالمصائب، أو يرتبط أوْلُه باختياره ولكن لا اختيار له في إزالته بعد الدخول فيه.

فهاهنا ثلاثة أقسام:

«القسم الأول»: ما يرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية، أما في الصلاة فلما فيها من الكسل وإيثار الراحة لا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب، ورين الذنب، والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة.

وأما الزكاة فلما في طبع النفس من الشح والبخل، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعاً. ويحتاج العبد إلى الصبر في ثلاثة أحوال:

---

(١) المنافقون آية ٩.

قبل الشروع في الطاعة؛ وذلك بتصحيح النية، والإخلاص في الطاعة، وحين الشروع في الطاعة؛ وذلك بالصبر على دواعي التقصير والتفريط، واستصحاب النية ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه.

والثالثة بعد الفراغ من الطاعة؛ وذلك بالصبر على ما يبطلها، فليس الشأن في الإتيان بالطاعة إنما الشأن في حفظها مما يبطلها، فيصبر عن رؤيتها والعُجبِ بها والتكبرِ، وكذلك يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سراً بينه وبين الله سبحانه؛ فيُكْتب في ديوان السر؛ فإن تحدث به نقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل.

أما الصبر عن المعاصي فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان عليها في المجالسة والمحادثة.

«القسم الثاني»: ما لا يدخل تحت الإختيار، وليس للعبد حيلة في دفعه كالمصائب، وهي إما أن تكون مما لا صنع لآدميّ فيه كالموت، والمرض، والثاني: ما أصابه من جهة آدمي كالسبِّ والضرب.

فالنوع الأول: للعبد فيه أربعة مقامات: مقام العجز، وهو الجزع والشكوى والثاني: مقام الصبر، والثالث: مقام الرضى، والرابع: مقام الشكر وهو بأن يشهد البلية نعمةً فيشكر المبتلي عليها.

وما أصابه من جهة الناس فله فيه هذه المقامات مضافاً إليها أربعةٌ أُخَر. الأول: مقام العفو. الثاني: مقام سلامة الصدر من إرادة التشفّي[1]. الثالث: مقام القَدر. الرابع: مقام الإحسان إلى المسيء.

«القسم الثالث»: ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار، ولا حيلة في دفعه.

---

(١) التشفّي: ذهاب الغيظ يقال: اشتفى من عدوه: ـ أي بلغ ما يُذهب غيظه منه.

الأخبار الواردة في فضيلة الصبر

في صحيح مسلم(١): عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله (إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلاّ أخلف الله له خيراً منها)، قالت: فلمّا مات أبو سلمة قلتُ: أيُ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسولَ الله ﷺ. . . الحديثَ.

وفي صحيح البخاري(٢) من حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «يقول عز وجلّ ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلاّ الجنّة».

وفي الصحيحين(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «ما من مصيبة تصيب المؤمن إلاّ كفّر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها».

---

(١) مسلم في الجنائز (٦/٢٢٠).
(٢) البخاري في الرقاق (١١/٢٤١).
(٣) البخاري في المرضي (١٠/١٠٣). ومسلم في البر والصلة (١٦/١٢٩) وليس هذا اللفظ لأحد منهما. إنما عند البخارى لفظ «مسلم» بدلاً من «مؤمن».

وفي المسند[1] من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه): «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده، وفي ماله، وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة».

وفي صحيح البخاري[2]: من حديث خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة ـ فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه، وعظمه؛ ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذئبَ[3] على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

الآثار: قال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة من المفاليس». قال سفيان بن عيينة في قوله تعالى.[4]

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِئَايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

لمّا أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء. ولمّا أرادوا قطع رِجْل عروة بن الزبير قالوا له: لو سقيناك شيئاً كيلا تشعر بالوجع، فقال: إنما ابتلاني، ليرى صبري أفأعارض أمره!.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند (٢/٢٨٧) واللفظ له، والترمذي في الزهد (٧/٨٠) وقال: حسن صحيح. والحاكم في الرقاق (٤/٢١٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ شاكر في المسند (٧٨٤٦).

(٢) البخاري في الإكراه (١٢/٣١٥) وفي مناقب الأنصار (٧/١٦٤).

(٣) الذئبَ: هو بالنصب عطفاً على المستثنى منه لا المستثنى والتقدير: لا يخاف إلاّ الذئب على غنمه. لأن مساق الحديث إنما هو للأمن من عدوان بعض الناس على بعض كما كانوا في الجاهلية، لا للأمن من عدوان الذئب فإن ذلك إنما يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى عليه السلام.

(٤) السجدة آية (٢٤).

قال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه فعاض[1] مكانها الصبر إلّا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه».

ومرض أبو بكر الصديق فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب، فقال: «قد رآني الطبيب، قالوا: فأيُّ شيءٍ قال لك؟ فقال: قال: «إني فعّالٌ لما أريد».

وروى أن سعيد بن جبير قال: «الصبر: اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع العبد وهو يتجلّد لا يرى منه إلّا الصبر».

فقوله اعتراف العبد لله بما أصابه منه كأنه تفسير لقوله «إنا لله»، فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد، وراجياً به ما عند الله كأنه تفسير لقوله «وإنا إليه راجعون»، أي نردّ إليه فيجزينا على صبرنا، ولا يضيع أجر المصيبة.

---

(١) عَاضَ: من العِوَض الذي هو البَدَل والخَلَف، والمعنى هنا فبدّل مكانها الصبر.

الشكر

الشكر: هو الثناء على المنعم بما أَوْلاَكَهُ من معروف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان - لا يكون شكراً إلاّ بمجموعها - وهي: الإعتراف بالنعمة باطناً، والتحدث بها ظاهراً، والإستعانة بها على طاعة الله. فالشكر يتعلق بالقلب، واللسان، والجوارح؛ فالقلب للمعرفة والمحبّة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصِيه.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال تعالى: (1)

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾.

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنّته عليهم من بين عباده، فقال عزّ وجلّ: (2)

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

---

(1) النساء آية (147).
(2) الأنعام آية (53).

وقَسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفرُ وأهلُه، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى: [1]

﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾.

وقال تعالى: [2]

﴿ وَإِذْ تَـأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَـرْتُمْ لَأَزِيـدَنَّكُمْ وَلَئِن كَـفَـرْتُمْ إِنَّ عَـذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

فعلق سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره، وقد وقف الله سبحانه كثيراً من الجزاء على المشيئة، كقوله تعالى: [3]

﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ ٱللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ ﴾.

وقال[4] في المغفرة:

﴿ وَيَغْفِرَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

وقال[5] في التوبة:

﴿ وَيَتُوبُ ٱللهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾.

وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكره كقوله تبارك وتعالى: [6]

﴿ وَسَنَجْزِي ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

---

(١) الإنسان آية (٣).
(٢) إبراهيم آية (٧).
(٣) من الآية (٢٨) من سورة التوبة.
(٤) المائدة من الآية (٤٠).
(٥) التوبة من الآية (١٥).
(٦) آل عمران من الآية (١٤٥).

ولما عرّف عدُو الله إبليس قدرَ مقام الشكر، وأنه من أجلّ المقامات وأعلاها، جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال:[1]

﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾.

ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال[2] تعالى:

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

وثبت في الصحيحين[3] عن النبي ﷺ «أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وثبت في المسند[4] والترمذي أن النبي ﷺ قال لمعاذ «والله إني لأحبك؛ فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: «اللهمّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

والشكر قيد النعم وسبب المزيد، كما قال عمر بن عبد العزيز: «قيدوا نعم الله بشكر الله». وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال لرجل من همذان: (إن النعمة موصولة بالشكر،

---

(١) الأعراف الآية (١٧).

(٢) سبأ من الآية (١٣).

(٣) البخاري في التفسير (٨/٥٨٤) ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٦٢) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٤) صحيح: رواه أحمد في المسند (٥/٢٤٧،٢٤٥) وأبو داود (٤/٣٨٤) العون والحاكم في معرفة الصحابة (٣/٢٧٣) وصححه ووافقه الذهبي. والنسائي في السهو (٣/٥٣). وصححه النووي في الرياض (٣٨٩)و(١٤٢٩) وفي الأذكار (١٧٤) وقال الحافظ في بلوغ المرام إسناده قوي (١/٢٠٠) سبل السلام. والحديث ليس عند الترمذي كما زعم المؤلف حفظه الله.

والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن؛ فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد).

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم؛ فإن ذكرَها شكرٌ، وقد أمر الله نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال[1]:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

والله تعالى يحب أن يُرى أثرُ نعمتِه على عبده؛ فإنَّ ذلك شكرها بلسان الحال[2].

وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحتَ يا أبا محمد: قال: «أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربُنا وهو غنيٌ عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون».

وقال شريح: «ما أصيب عبدٌ بمصيبة إلاّ كان لله عليه فيها ثلاث نعم: ألا تكون كانت في دينه، وألا تكون أعظم مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت».

وقال يونس بن عبيد: قال رجل لأبي غنيمة[3]: كيف أصبحتَ؟ قال: «أصبحتُ بين نعمتين لا أدري أيتُهما أفضل: ذنوبٍ سترها الله عليّ فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد، ومودةٍ قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي».

---

(١) الضحى آية (١١).

(٢) ويؤيده ما ثبت عند الترمذي في الأدب (٨/١٠٦) وحسنه، والحاكم في الأطعمة (٤/١٣٥) وصححه ووافقه الذهبي: من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: إن الله يحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده. وصححه الشيخ شاكر (٦٧٠٨) في المسند.

(٣) كذا في المطبوع وهو خطأ والصواب «قال رجل لأبي تميمة» وأبو تميمة هو الهجيمي البصري اسمه «طريف بن مجالد». انظر «كتاب الشكر» لابن أبي الدنيا (ص ٢٧) و(ص ٥٩).

وعن سفيان في قوله[1] تبارك وتعالى:

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قال: يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر، وقال غير واحد: «كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة».

قال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ فقال: إنْ رأيت بهما خيراً أعلنته، وإنْ رأيتَ بهما شراً سترتَه، قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إنْ سمعتَ بهما خيراً وعيتَه، وإنْ سمعتَ بهما شراً دفعتَه، قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو فيهما، قال: فما شكر البطن؟ قال: أنْ يكون أسفله طعاماً وأعلاه علماً. قال: فما شكر الفرْج؟ قال[2]:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾.

قال فما شكر الرِجْلَين؟ قال: إن علمت ميتاً تغبطه استعملت بهما عمله[3]، وإن مقته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله، وإما من شكر بلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر، والبرد، والثلج، والمطر.

وكتب بعض العلماء إلى أخٍ له: أما بعد فقد أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيهما نشكر، أجميل ما يَسَّر، أم قبيح ما ستر؟!

---

(١) سورة (ن) آية (٤٤).

(٢) سورة المؤمنون آية (٥، ٦، ٧).

(٣) والمعنى إذا علمت أن هناك ميتاً من الصالحين ـ وأنت تتمنى أن تكون مثله ـ كان يستخدم رجله في الطاعة والخير فاعمل مثله.

التوكل

التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله عزّ وجلّ في استجلاب المصالح ودفع المضارّ في أمور الدنيا والآخرة.

قال الله عز وجلّ:[1]

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

فمَن حقق التقوى والتوكلَ؛ اكتفى بذلك في مصالح دينه ودنياه.

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو[2] خِماصا[3] وتروح[4] بِطاناً[5]» رواه الترمذي[6] وغيره، وقال الترمذي: حسن صحيح. قال أبو حاتم الرازي: هذا الحديث أصلٌ في التوكل وإنه

(١) سورة الطلاق آية (٢،٣).

(٢) تغدو: تذهب أول النهار.

(٣) خماصاً: بكسر الخاء المعجمة، جمع خميص أي جياعاً.

(٤) تروح: ترجع آخر النهار.

(٥) بطاناً: بكسر الموحدة، جمع بطين: وهو عظيم البطن والمراد شباعاً.

(٦) صحيح: الترمذي في الزهد (٨/٧) واللفظ له، والحاكم في الرقاق (٤/٣١٨) وصححه وأقره الذهبي.

مِن أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ.

وقال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان». وتحقيق التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدرات بها؛ وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب، مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، قال تعالى:(1)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ... الآية ﴾

قال سهل: «من طعن في الحركة يعني في السعي والكسب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»؛ فالتوكلُ حالُ النبي ﷺ والكسبُ سنتُه فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنته.

وقيل: «عدم الأخذ في الأسباب طعن في التشريع، والاعتقاد في الأسباب طعن في التوحيد».

والأعمال التي يعملها العبد ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات التي أمر الله بها عبادَه، وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخول الجنّة، فهذا لا بد من فعله، مع التوكلِ على الله عز وجلّ فيه، والاستعانةِ به عليه، فإنه لا حولَ ولا قوةَ إلاّ به، وما شاء سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصّر في شيءٍ مما وجب عليه مِن ذلك استحق العقوبةَ في الدنيا والآخرةِ شرعاً وقدراً.

قال يوسف بن أسباط: «يقال اعملْ عملَ رجلٍ لا ينجيه إلاّ عملُه، وتوكلْ توكلَ رجلٍ لا يصيبه إلاّ ما كُتب له».

القسم الثاني: ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عبادَه بتعاطيه

(1) سورة النساء آية (71).

كـالأكل عنـد الجـوع، والشـرب عنـد العـطش، والاستـظلال من الحـر، والتدفؤ من البرد، ونحو ذلك؛ فهذا أيضاً واجب على المرء تعاطي أسبابـه ومن قصّر فيه حتى تضـرر بتركـه ـ مع القـدرة على استعمـاله ـ فهـو مفرط يستحق العقوبة.

القسم الثالث: ما أجرى الله العادةَ به في الدنيـا في الأعم الأغلب، وقد يَخرق العادةَ في ذلك لمن شاء مِن عباده وهي أنواع: كالأدويّة مثلاً وقد اختلف العلماء: هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تـركه لمن حقق التوكل على الله؟.

فيه قولان مشهوران. وظاهر كلام الإمام أحمد أن التـوكلَ لمن قَـوِي عليـه أفضلُ لمـا صحّ[1] عن النبي ﷺ أنـه قال: «يـدخـل الجنـةَ من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ثم قـال: هم الذين لا يتـطيرون ولا يستـرقون[2] ولا يكتوون[3] وعلى ربهم يتوكلون».

ومن رجح التداوي قال: إنه حال النبي ﷺ الذي كان يداوم عليـه ـ وهـو لا يفعل إلاّ الأفضـل ـ وحمل الحـديث على الـرقي المكـروهـة، التي يخشى منها الشرك، بدليل أنه قرنها بالكي والطيرة وكلاهما مكروه.

قـال مجـاهـد، وعكـرمـة، والنخعي، وغـير واحـد من السلف: لا يـرخص في ترك السبب بـالكليـة إلاّ لمن انقـطع قلبـه عن الاستشراف إلى المخلوقين بالكلية.

وسئـل إسحق بن راهوية: هل للرجل أن يدخل المغارة بغير زاد؟، فقال: «إن كـان الـرجل مثل عبد الله بن جبير فله أن يدخل المغارة بغير زاد، وإلاّ لم يكن له أن يدخل».

---

(١) البخاري في الرقاق (١١/٣٠٥) من حديث ابن عباس، ومسلم في الايمان (٣/٨٩) من حديث عمران بن حصين.

(٢) الاسترقاء: طلب الرقية.

(٣) الاكتواء: استعمال الكي في البدن وهو إحراق الجلد بحديدة محماة.

محبة الله عز وجل

المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلاّ وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلاّ وهو مقدمةٌ من مقدماتها كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها.

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها، وأعلاها، وأجلها، محبة من جبلت القلوب على محبته، وفطرت الخليقة على تأليهه، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة، والإجلال، والتعظيم، والذل له، والخضوع، والتعبد. والعبادة لا تصلح إلاّ له وحده ـ والعبادة: هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

والله تعالى يُحَبّ لذاته مِن جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحب تبعاً لمحبته، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع الرسل؛ وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركب فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم؛ فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة مَن أنعم عليها، وأحسن إليها، فكيف بمن كُل الإحسان منه، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى[1]:

(١) سورة النحل آية (٥٣).

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ .

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته.

قال تعالى: [1]

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾

وقال تعالى: [2]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

وقد أقسم النبي ﷺ إنه «لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين» الحديث متفق عليه[3] من حديث أنس.

وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لا حتى أكون أحب إليك من نفسك» متفق عليه[4] أي لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا[5] في المحبة ولوازمها، أفليس الربّ جل جلاله أولى بمحبته وعبادته من أنفسنا؟

وكل ما منه إلى عبده يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره؛ فعطاؤه

---

(١) سورة البقرة آية (١٦٥).

(٢) سورة المائدة آية (٥٤).

(٣) البخاري في الإيمان (١/٥٨) ومسلم في الايمان أيضاً (٢/١٥).

(٤) البخاري في الايمان والنذور (١١/٥٢٣) من حديث عبد الله بن هشام. وليس هو عند مسلم.

(٥) كما قال تعالى في سورة الأحزاب آية (٦) «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم... الآية».

ومنعـه، ومعافـاته وابتـلاؤه، وقبضه وبسـطه، وعـدلـه وفضله، وإمـاتتـه وإحياؤه، وبره ورحمته وإحسانه وستره، وعفوه وحلمه، وصبره على عبده، وإجابته لدعائه، وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته، من غـير حاجـة منه إليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه؛ كل ذلك داعٍ للقلوب إلى تأليهه ومحبته، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبـه عن محبتـه، فكيف لا يحب العبد بكـل قلبه وجـوارحه من يحسن إليـه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته؟

فخيره إليه نـازل، وشره إليـه صاعـد، يتحبب إليه بنعمـه وهو غني عنـه، والعبد يتبغض إليـه بالمعـاصي، وهو فقـير إليه - فـلا إحسانـه وبـره وإنعامه عليه يصده عن معصيتـه، ولا معصية العبـد ولؤمه يقـطع إحسان ربه عنه.

وأيضاً فكل من تحبه مِن الخلق ويحبك إنمـا يريـدك لنفسه، وغـرضه منك، والله سبحانه وتعالى يريدك لك.

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعـاملك، ولا بد له من نوع من أنواع الربح، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليـه أعـظم الربـح وأعلاه؛ فـالدرهم بعشـرة أمثـالـه إلى سبعمـائـة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً.

وأيضاً فهو سبحـانه خلقـك لنفسه، وخلق كـل شيء لك في الـدنيا والآخـرة، فمَن أولى منـه بـاستفـراغ الـوسـع في محبتـه، وبـذل الجهـد في مرضاته.

وأيضاً فَمَطَالِبُك - بل مطالب الخلق كلهم جميعاً - لـديه، وهـو أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، أعـطى عبدَه قبـل أن يسألـه فوق مـا يؤمله، يشكر القليل من العمل وينميه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، يسأله مَن

في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بالحاح الملحين، بل يحب الملحين في الدعاء، ويحب أن يُسأل، ويغضب إذا لم يُسأل، ويستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى؛ فأرسل رسله في طلبه، وبعث إليه معهم عهده، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه[1]، وقال: «من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلاّ هو، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟

فهو أحق مَن ذُكر، وأحق من شُكر، وأحق من عُبد، وأحق من حُمد، وأنصر من ابتغى، وأرأف من ملك، وأجود من سُئِل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قُصد، وأعز من التُجيء إليه، وأكفى من تُوكِل عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها؛ وهو الملك لا شريك له، والفرد لا ندّ له، كل شيء هالكٌ إلاّ وجههُ، لن يُطاع إلاّ بإذنه، ولن يُعصى إلاّ بعلمه، يُطاع فيَشكر، وبتوفيقه ونعمته أُطيعَ، ويُعصى فيعفو ويغفر وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجل حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط؛ حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه

(١) وشاهده حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في «المسافرين وقصرها» (٦/٣٦) أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له».

ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلّت الفِطَر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومحبة الله عز وجلّ هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذةٌ ولا نعيمٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلاّ بها؛ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورَها، والأُذُن إذا فقدت سمعها، بل فساد القلب ـ إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق ـ أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح، وهذا الأمر لا يصدق به إلاّ من فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام.

الآثار: ـ قال فتح الموصلي: «المحب لا يجد للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين». ، وقال بعضهم: «المحب طائر القلب، كثير الذكر، متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً».

وأنشد بعضهم:

وكن لربك ذا حب لتخدمه ... إن المحبين للأحباب خُدّامُ

وأوصت امرأة من السلف أولادَها فقالت لهم: «تعوّدوا حبّ الله وطاعته، فإن المتقين أُلفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحُهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصية مرّت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون».

وأنشد ابن المبارك:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس شنيعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ

الرضا بقضاء الله

للعبد فيما يكره درجتان: درجة الرضى، ودرجة الصبر، فالرضا فضل مندوب إليه، والصبر واجب على المؤمن حتم.

وأهل الرضا تارة يلاحظون حكمة المبتلي وخيرته لعبده في البلاء وأنه غير متهم في قضائه، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة والمحبة، حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره من حبيبهم. *

والفرق بين الرضى والصبر: أن الصبر حبس النفس وكفها عن السخط - مع وجود الألم - وتمنى زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا: انشراح الصدر، وسعته بالقضاء، وترك زوال الألم - وإن وجد الإحساس بالألم - لكن الرضى يخففه بما يباشر القلب من رُوح اليقين والمعرفة، وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية.

خرّج الترمذي[1] من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي له الرضا، ومن سخط عليه السخط».

(*) وكان بشر الحافي يقول:

رضيت بالله في عسرى وفى يسرى　　　فلست أسلك إلا واضح الطرقِ

الحلية (٨/٣٥٤).

(١) حسن: رواه الترمذى في الزهد (٧/٧٧) وقال: هذا حديث حسن غريب ا هـ وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢/٤٥٩).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط».

وقال علقمة في قوله تعالى (١) :

﴿ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾.

هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسور في قوله تعالى (٢) :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾

الرضا والقناعة.

ونظرَ علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى عديّ بن حاتم كئيباً؟، فقال: مالي أراك كئيباً حزيناً؟، فقال: وما يمنعني وقد قتل ابناي وفقئت عيني، فقال: يا عديّ مَن رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

دخل أبو الدرداء (رضي الله عنه) على رجل يموت (وهو يحمد الله) فقال أبو الدرداء: أصبت إن الله عز وجلّ إذا قضى قضاء أحب أن يُرضى به.

قال الحسن: ـ «من رضي بما قسم له وسِعه وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه». وقال عمر بن عبد العزيز: ـ «ما بقيَ لي

---

(١) التغابن آية (١١).

(٢) سورة النحل آية (٩٧).

سرور إلاّ في مواقع القدر». وقيل له ما تشتهي؟ فقال: «ما يقضي الله عز وجلّ».

وقال عبد الواحد بن زيد: - «الرضا بابُ الله الأعظم، وجنةُ الدنيا، ومستراح العابدين».

وقال بعضهم: - «لن يُرى في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى في كل حال، فمن وهب له الرضا فقد تبلغ أفضل الدرجات».

وأصبح أعرابيّ وقد مات له أباعر[١] كثيرة فقال: «لا والذي أنا عبد في عبادته: لولا شماتة أعداء ذوي إضٍ[٢] ما سرّني أن أبلي مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن.

(١) أباعر: جمع بعير، وهو ما صلح للركوب والحمل من الإبل - وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة.
(٢) إضٍ: - المشقة. ذوي إض: - يعني ذوى حزن وحسد.

الرجــــاء

الرجاء: ـ

هو ارتياح القلب؛ لانتظار ما هو محبوب عنده.

وإذا كانت الأسباب غير موجودة فإسم الغرور والحمق عليه أصدق، وإذا كان الأمر مقطوعاً به فلا يسمى رجاء إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس، ولكن يمكن أن يقال: أرجو نزول المطر.

وقد علم علماء القلوب: أن الدنيا مزرعة الأخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذور فيها، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها.

والقلب المستهتر[1] بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ـ ويوم القيامة هو الحصاد، ولا يحصد أحد إلاّ ما زرع، ولا ينمو بذر إلاّ من بذر الايمان، وقلّما ينفع إيمان مع خبث القلب، وسوء أخلاقه، وكما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمدّه بما يحتاج إليه في أوقاته، ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسده، ثم جلس منتظرا من فضل

(١) استهتر بالشيء: ـ فتن به ولزمه غير مبالٍ بنقدٍ ولا موعظة.

الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، سمى انتظاره رجاءاً. وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا يصل إليها الماء، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه؛ سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاءاً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختيار العبد، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهّر قلبه من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة؛ كان انتظاره رجاءاً حقيقياً.

قال تعالى: [1]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

يعني أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ولكن خصّص بهم استحقاق الرجاء.

ومن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة، زاجراً له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كان رجاؤه داعياً له إلى البطالة والإنهماك في المعاصي فهو غرور.

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه، **الثاني**: خوفه من فواته، **الثالث**: سعيه في

---

(١) سورة البقرة آية (٢١٨).

تحصيله وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من بـاب الأمانيّ، والـرجاء شيء والأماني شيء آخر.

وكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السـير مخافـة الفوات. وفي جامع الترمذي[1] من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ـ « مـن خـاف أدلـج[2] ومـن أدلـج بـلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ».

(١) حسن :- الترمذي في صفة القيامة (٧/١٤٦) قال : حسن غريب . والحاكم في الرقاق (٤/٣٠٧) وصححه ووافقه الذهبي وأخرجه أبو نعيم فى الحلية من وجه آخر (٨/٣٧٧) عن أُبَيّ .

(٢) « أدلج » يعني سار من أول الليل و « بلغ المنزل » وصل إلى المطلب ومعنى الحديث : من خشى الله أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على شر قال المنذري في الترغيب (٤/١٣٨) : « ومعنى الحديث : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفاً من القواطع والعلائق »اهـ .

أخبار الرجاء

الآيات: ـ قوله سبحانه[1] وتعالى:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّـذِينَ أَسْرَفُـواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَـطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وقوله عز وجلّ: [2]

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ . . . الآية ﴾.

الأحـاديث: ـ ما ورد في صحيـح[3] مسلم عنـه ﷺ أنـه قـال: «لا يموت رجل مسلم إلاّ أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً».

وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنـه): «قدِم عـلى رسول الله ﷺ سبيٌ، فـإذا امـرأة من السبي تسعى إذ وجـدت صبيـاً في السبي أخـذتـه فالزقته ببطنها فأرضعتـه، فقال رسـول الله ﷺ: أترون هـذه المرأة طـارحة ولدها في النار. قلنا: لا والله فقال: الله أرحم بعبده المؤمن من هـذه على ولدها» متفق عليه[4].

---

(١) سورة الزمر آية (٥٣).

(٢) سورة الرعد آية (٦).

(٣) مسلم في التوبة (١٧/٨٥) عن أبي موسى الأشعري (رضى الله عنهما).

(٤) البخاري في الأدب (١٠/٤٢٦)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٠).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ «إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق «إن رحمتي تغلب غضبي»» متفق عليه [1]

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبُك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». رواه الترمذي[2] وقال حسن

الآثار

قال يحيى بن معاذ: «من أعظم الإغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجلّ مع الإفراط».

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس[1]

---

(١) البخاري في بدء الوحي (٦/٢٨٧) والتوحيد (٣٨٤، ١٣/٥٢٢)، ومسلم في التوبـ (١٧/٦٨).

(٢) حسن: ـ الترمذى فى الدعوات (٩/٥٢٤) وقال حسن غريب.

(١) روي ابن حبان في روضه العقلاء (ص ٢٨٤) بإسناده إلى أبي العتاهيه قال: دخلت على هارون أمير المؤمنين فلما بصر بي قال أبو العتاهية؟ قلت أبو العتاهية، قال: الذي يقول الشعر؟ قلت الذي يقول الشعر. قال: عظني بأبياتِ شعرٍ وأوجز، فأنشدته:

لاتأمن الموت في طرف ولا نفس   ولو تمنعت بالحجّاب والحرسِ
واعلم بأن سهام الموت قاصدة   لكل مدَّرِع منا ومتّرسِ
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها؟   إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فخرّ مغشياً عليه. أو كما قال «ا هـ».



الخوف

الخوف: سوط الله يسوق به عباده إلى العلم والعمل لينالوا بهما القرب من الله تعالى. وهو عبارة عن: - تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، والخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي، ويقيدها بالطاعات.

والخوف القاصر يدعو إلى الغفلةِ والجرأةِ على الذنب، والإفراط في الخوف يدعو إلى اليأس والقنوط.

والخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى، واستغنائه، وأنه لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون؛ تكون قوة خوفه.

فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه. ولذلك قال ﷺ: «والله إنّي لأعلمهم بالله وأشدّهم له خَشية» رواه الشيخان[1].

---

(١) البخاري في الأدب (١٠/٥١٣) والاعتصام (١٣/٢٧٦)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٠٦) عن عائشة (رضي الله عنها).

وقيل للإمام الشعبي: يا عالم: قال: إنّما العالم من يخشى الله، وذلك لقول الله[1] عز وجلّ:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾.

(١) سورة فاطر آية (٢٨).

الخائف

ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقيل لذى النون المصري : متى يكون العبد خائفاً ؟ قال : « إذا نزّل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمى مخافة طول السقام » .

وقال أبو القاسم الحكيم : ـ «من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه». وقال الفضيل ابن عياض : ـ «إذا قيل لك: هل تخاف الله فاسكت فإنك إن قلت نعم كذبت، وإن قلت لا كفرت».

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمّاً. فتحرق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويحصل في القلب الخشوع والذلّة والاستكانة، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلّا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، والضِنّة[1] بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات، والخطوات والكلمات، ويكون حاله حال من وقع في مخلب سبع ضار، لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلك، فيكون بظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره، فهذا حال من غلبه الخوف.

(١) الضِنّه: البخل.

فضيلة الخوف

جمع الله عز وجلّ لأهل الخوف الهدى، والرحمة، والعلم، والرضوان؛ فقال تعالى: (١)

﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

وقال تعالى: (٢)

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾.

وقال عزّ وجلّ: (٣)

﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾.

وقد أمر الله عز وجلّ بالخوف، وجعله شرطاً في الإيمان؛ فقال عزّ وجلّ: (٤)

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف، ويكون

(١) الأعراف آية (١٥٤).
(٢) فاطر آية (٢٨).
(٣) البينة آية (٨).
(٤) آل عمران آية (١٧٥).

ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه.

قال ﷺ: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع» رواه الترمذي[1]، وقال حسن صحيح.

قال الفضيل بن عياض: «من خاف الله دلّه الخوف على كل خير».

قال الشبلي: ـ «ما خفت الله يوماً إلاّ رأيت له باباً من الحكمة والعبرة».

وقال يحيى بن معاذ: ـ «ما من مؤمن يعمل سيئة إلاّ ويلحقها جنتان: خوف العقاب، ورجاء العفو»[2]

---

(١) صحيح: رواه الترمذي في فضائل الجهاد (٥/٢٦٠) وقال حسن صحيح، وفي الزهد (٦/٦٠٠) وقال هذا حديث صحيح.

(٢) قال أبو حامد الغزالي في (الإحياء): «كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان» (٤/١٥٦).

الأخبار في الخوف

قال الله تعالى: [١]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾ .

وقد روى الترمذي[٢] في جامعه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون ويخافون ألاّ يتقبل منهم، أولئك يسارِعون في الخيرات».

---

(١) سورة المؤمنون الآيات (من ٥٧ حتى ٦١) .

(٢) صحيح : الترمذي في كتاب التفسير (٩/١٩) ، والحاكم في التفسير ووافقه الذهبي (٢/٣٩٣) على تصحيحه . وقال العراقي في تخريج الإحياء (١٣/٢٣٤٣) : بل منقطع بين عبد الرحمن بن سعيد بن وهب وبين عائشة : قال الترمذي : وروي عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة اهـ . قال الزبيدي في شرح الإحياء (٩/٣١٢) : واللفظ الثاني الذي أشار له الترمذي رواه بن أبي الدنيا وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن أبي هريرة ... اهـ فانتفت علة الانقطاع بطريق أبي هريرة . وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره من سورة البقرة (١/٣٠٨) . آية (١٢٧) .

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قرأ رسول الله ﷺ «هل أتى على الإنسان حين من الدهر... حتى ختمها. ثم قال: إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون: أطّت[1] السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلاّ ملك واضع جبهته لله ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات [2] تجأرون[3] إلى الله ولوددت [4] أني شجرة تعضد». رواه البخاري[5] باختصار.

ومعنى الحديث: لو أنكم علمتم ما أعلمه من عظمة الله عز وجلّ، وانتقامه ممن يعصيه، لطال بكاؤكم وحزنكم وخوفكم مما ينتظركم، ولما ضحكتم أصلاً، .فالقليل هنا بمعنى المعدوم، وهو مفهوم من السياق.

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ كان إذا تغيّر الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج، كل ذلك خوفاً من عذاب الله». متفق عليه[6].

وروى عبد الله بن الشِخير: أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل في

---

(١) أطّتْ : هو صوت الأقتاب – أي صوتت .
(٢) الصُعُدات : بضمتين .. أي الطرق – وقيل المراد هنا : الصحارى .
(٣) تجأرون : تتضرعون إليه بالدعاء ليدفع عنكم البلاء .
(٤) لوددت : اللام هنا جواب قسم محذوف : أي والله لوددت .
(٥)،(٦) راجع الهامش ص ١٥٠ .

الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المِرجَل» رواه النسائي[1] وأبو داود والترمذي.

ومن تأمل أحوال الصحابة - رضي الله تعالى عنهم -، ومن بعدهم من الصالحين من سلف هذه الأمة؛ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعاً جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

فهذا الصديق (رضي الله عنه) يقول[2]: « وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن » ، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل .

وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قرأ سورة الطور حتى بلغ « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه ، وقال لابنه وهو يموت[3]: « ويحك ضع خدي على الأرض عساه يرحمني ثم قال : ويل أمي إن لم يغفر لي – « ثلاثا » – ثم قضى ، وكان يمر بالآية في ورده بالليل تخيفه فيبقى في البيت أياماً يعاد يحسبونه مريضاً ، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء[4].

وقال له ابن عباس: «مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل»، فقال: «وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر».[5]

وهذا عثمان ابن عفّان (رضي الله عنه) كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته، قال لو أنني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما أصير لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

---

(١) صحيح : النسائي فى السهو (٣/١٣) ، وأبو داود في الصلاة (٣/١٧٢) وسكت عليه ، والترمذي في الشمائل ص (٣٣٧) قال الحافظ في الفتح (٢/٢٠٦) : إسناده قوي ، وأحمد في مسنده (٤/٢٥) والفتح الرباني (٤/١١١) . وصححه ابن حبان باب البكاء في الصلاة (ص ١٣٩) موارد . وقال النووي في رياض الصالحين (ص ٢٠٩) : رواه أبو داود والترمذي في الشمائل بإسناد صحيح . وفي إطلاقه العزو للترمذي تجوّز ؛ لأن المراد بالترمذي عند الإطلاق سننه لا شمائله وقد علمت أنه في الشمائل فتأمل .

(٢) أخرجه أحمد فى « الزهد »(١٠٨) .

(٣) أخرجه أحمد فى « الزهد »(١١٨) .

(٤)،(٥) راجع الهامش ص ١٥٠ .

وهذا أبو الدرداء[1] (رضي الله عنه) كان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت؛ ما أكلتم طعاماً على شهوة، ولا شربتم شراباً على شهوة أبداً، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) أسفل عينيه مثل الشراك[2] البالي من كثرة الدموع.

وقال علي - كرم الله وجهه - وقد سلم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده؛ لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً صفراً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزي[3]؛ قد باتوا سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا، ذكروا الله تمادو كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأني بالقوم باتوا غافلين. ثم قام فما رؤ ى بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وقال موسى بن مسعود: «كنا إذا جلسنا إلى سفيان كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه».

ووصف أحدهم الحسن فقال: «كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلاّ له».

---

(١) ضعيف: - ليس موقوفاً على أبي الدرداء بل رواه ابن عساكر عنه مرفوعاً كذا في الجامع الصغير وضعفه السيوطي (٣/٣١٨) في الجامع الصغير. وروي الحاكم نحوه عن ابي ذر موقوفاً (٤/٥٧٩). وصححه على شرطهما وتعقبه الذهبي بأن فيه انقطاعاً وأحد رواته رافضي لم يخرجا له.

(٢) الشراك: - سير النعل على ظهر القدم يربط به الحذاء ونحوه. والمعنى أنه كان له خطان أسودان.

(٣) الركب: - جمع ركبه وهي: موصل أسفل الفخذ بأعلى الساق.
المِعْزى: - بكسر الميم وسكون العين المهملة هي المعز - وأحدها ماعز.

وروى[1] أن زرارة بن أبي أوفى صلّى بالناس الفجر بسورة المدثر، فلمّا قرأ: قوله[2] تبارك وتعالى: «فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذٍ يوم عسير». أخذته شهقة فمات.

وروي[3] عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه قال: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا؛ فوالذي نفسي بيده: لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته، وصلى حتى ينكسر صلبه».

---

(١) أخرجه الترمذي فى الصلاة (٢/٥٢٣) تحفة ، وانظر الذهبي في العبر (١/١٠٩) .

(٢) سورة المدثر الآيتان (٨،٩) .

(٣) صحيح : رواه الحاكم في الأهوال (٤/٥٧٨) موقوفاً على عمرو بن العاص وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي بلفظ : « ابكوا فإن لم تجدوا بكاءاً فتباكوا – لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره ولبكى حتى ينقطع صوته » .

والقطعة الأولى : « ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » أخرجها أحمد فى الزهد (ص ١٠٨، موقوفة على أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

الـدنيـا

إعلم أن الذم الوارد في الكتاب والسنة ليس راجعاً إلى زمانها الـذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإن الله عز وجل جعلهما خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً.

وورد في الأثر «إن هذا الليـل والنهار خـزانتان فـانظروا مـا تصنعون فيهما». وقال مجاهد: «ما من يوم إلّا يقـول: ابن آدم: قد دخلت، عليـك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فيّ، فإذا انقضى طـوى، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يقضيه يوم القيامة».

وأنشد بعضهم: -

إنمـا الدنيـا إلى الجنة والنـار طريقٌ   والليالي متجر الإنسان والأيام سوقُ

فـالوقت هو رأس مال العبد، وقد صح (١) عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من قـال: سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » . فانظر إلى مُضَيع الساعاتِ كم يفوته من النخيل.

وكان أحد الصالحين إذا أثقـل الناس في الجلوس عنـده يقول: «أمـا تريدون أن تقوموا، إن ملَك الشمس يجرها لا يفتر».

---

(١) صحيح: - مرّ ذِكره (ص ٤٦) وهو عند الترمذي وقال: حسن غريب صحيح.

وقال رجل لأحد العلماء[1] «قف أكلمك، قال: أوقف الشمس».

وكذلك ليس ذم الدنيا راجعاً إلى مكان الدنيا وهو الأرض، وما أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن، فإن ذلك كله من نعم الله على عباده لما لهم فيها من المنافع، والاعتبار، والإستدلال على وحدانية الصانع سبحانه وقدرته وعظمته؛ .. وإنما الذم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا، لأن غالبها واقع على غير الوجه الذي تحمد عاقبته، كما قال عز وجلّ:[2]

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَٰدِ ﴾.

وانقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين: أحدهما: أنكر أن للعباد داراً بعد الدنيا للثواب والعقاب وهؤلاء هم الذين قال الله[3] فيهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ . أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

وهؤلاء همّهم التمتع في الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى:[4]

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَٰمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾.

والقسم الثاني: ـ مَن يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى المرسلين؛ وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

---

(١) هو عامر بن عبد قيس. انظر صيد الخاطر (ص ٦٠٢).
(٢) سورة الحديد آية (٢٠).
(٣) سورة يونس الأيتان (٧، ٨).
(٤) سورة محمد آية (١٢).

والظالم لنفسه: هم الأكثرون، وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همّه بها يرضى، وبها يغضب ولها يوالي، وعليها يعادي؛ وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة إيماناً مجملاً فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا، ولا أنها منزلة يتزود فيها بعدها.

والمقتصد: من أخذ الدنيا من وجوهها المباحة، وأدى واجبها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب يتوسع به في التمتع بشهوات الدنيا، وهؤلاء لا عقاب عليهم في ذلك إلّا أنه ينقص درجاتهم، كما قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لولا أن تنقص من جناتي لخالفتكم في لين عيشكم ولكن سمعت الله عيّر قوماً فقال: (١)

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾

وأما السابق بالخيرات بإذن الله: فهم الذين فهموا المراد من الدنيا وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في الدار ليبلوهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى: (٢)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾.

يعني أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة، ثم قال تعالى: (٣)

﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾.

فاكتفى السابقون منها بما يكف المسافر من الزاد، كما قال النبي(٤)

---

(١) سورة الأحقاف آية (٢٠).

(٢) سورة الكهف آية (٧).

(٣) الكهف آية (٨).

(٤) صحيح: ـ الترمذي في الزهد (٤٨/٧) واللفظ له من حديث عبد الله وقال: هذا حديث صحيح، وكذا رواه الحاكم في الرقاق (٣١٠/٤) من حديث عبد الله بن مسعود ومن =

ﷺ: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلاّ كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ، ثم راح وتركها».

ووصى[1] ابنَ عمر (رضي الله عنهما) ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التقوي على طاعة الله كانت شهواته له طاعة يثاب عليها، كما قال معاذ[2] رضي الله عنه: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي».

قال سعيد بن جبير: «متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو خير منه».

وقال يحيى بن معاذ: «كيف لا أحب دنيا قُدر لي فيها قوت أكتسب بها حياة؛ أدرك بها طاعة؛ أنال بها الجنة».

وسُئل أبو صفوان الرعيني: «ما هي الدنيا التي ذمّها الله في القرآن والتي ينبغي للعاقل أن يتجنبها؟»، فقال: «كل ما أصبت في الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس منها».

وقال الحسن: «نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن؛ وذلك أنه عمل قليلاً وأخذ زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار».

= حديث عُمر (رضي الله عنهما) (٤/٣٠٩) وصحح الحاكم حديث عمر على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(١) صحيح: مرّ (ص٢٨) وهو صحيح.

(٢) وهو ثابت في صحيح مسلم (١٢/٢٠٧) في كتاب الإمارة من قول معاذ موقوفاً عليه في حديث طويل وفي آخره قوله «أما أنا فأنام وأقوم وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي».
وفي البخاري في «المرتدين» (١٢/٢٦٨) بيروت رقم [٦٩٢٣].

وفي المسند[1] وصحيح بن حبان عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

قال عون بن عبد الله: «الدنيا والآخرة في القلب ككفتي الميزان ما ترجح إحداهما تخف الأخرى».

وقال وهب: «إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان إذا أرضى إحداهما أسخط الأخرى». وقال أبو الدرداء: «لئن حلفتم لي على رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم».

وقال[2] رجل للتابعين: «لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيراً منكم؛ كانوا أزهد في الدنيا».

---

(١) ضعيف: المسند (٤/٤١٢). والحاكم في الرقاق (٤/٣٠٨) وصححه على شرط الشيخين، وردّه الذهبي بأن فيه انقطاعاً. وابن حبان في صحيحه (٦١٢ موارد) والبيهقى فى السنن (٣/٣٧٠) وهو من رواية المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبي موسى الأشعري وقال المنذري في الترغيب (٤/١٠٣): المطلب لم يسمع من أبي موسى.

(٢) القائل هو: عبد الله بن مسعود أخرج أبو نُعيم في الحلية (١/١٣٦) عن عبد الله بن مسعود قال: أنتم أكثر صياماً وأكثر صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهم كانوا خيراً منكم. قالوا لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة. وعلقه البغوي عن ابن مسعود في «شرح السنة» (١٤/٢٤٢-٢٤٣).

أضرار حب الدنيا

حدث الإمام أحمد عن سفيان قال: كان عيسى ابن مريم يقول: «حبّ الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيها داء كثير، قالوا وما داؤه؟ قال: لا يسلم من الفخر والخيلاء، قالوا: فإن سلم؟؟ قال يشغله إصلاحه عن ذكر الله عز وجلّ»[1].

فحب الدنيا هو الذي عمّر النار بأهلها، والزهد في الدنيا هو الذي عمّر الجنة بأهلها، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر، فصاحبه لا يفيق إلاّ في ظلمة اللحد، قال يحيى بن معاذ: «الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها فلا يفيق إلاّ في عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين». وأقل ما فيها أنه يلهي عن حب الله وذكره، ومن ألهاه ماله فهو من الخاسرين، وإذا لهى القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان؛ وصرفه حيث أراد. ومن فقهه في الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير.

---

(١) ضعيف: ـ ليس له إسناد معروف كذا في مجموعة الفتاوي (١٨/١٢٣)، وقال في الفتاوي المصرية (٤٨٣): ليس هو حديثاً بل معروف عن جندب ويذكر عن المسيح. اهـ وهو موافق لما ذكر المؤلف حفظه الله. وقال العراقي في تخريج الإحياء: رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلاً (٩/١٧٠٤). وقال في شرح الألفية (١/١٣٣): إما من كلام مالك بن دينار، وإما مروي من كلام عيسى ولا أصل له من حديث النبي ﷺ، إلاّ من مراسيل الحسن البصري ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح. اهـ باختصار.

تنبيه: أنظر الاستدراك ص ١٥٠

ويقول ابن مسعود (رضي الله عنه): «ما أصبح أحد في الدنيا إلاّ ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة»[1].

قالوا: - وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا، ومفسداً للدين من وجوه:

أحدها: - أن حبها يقتضي تعظيمها وهي حقيرة عند الله - ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقّر الله.

وثانيها: - أن الله لعنها، ومقتها، وأبغضها؛ إلاّ ما كان له فيها، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة، ومقته وغضبه.

وثالثها: - أنه إذا أحبها صيّرها غايته، وتوسل إليها بالأعمال التي جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة، فعكس الأمر وقلب الحكمة، فها هنا أمران: أحدهما: جعل الوسيلة غاية، والثاني: التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا، وهذا شر معكوس من كل وجه، وقلب منكوس غاية الإنتكاس، وهذا هو الذي انطبق عليه: حذو القُذة[2] بالقُذة، قال تعالى:[3]

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ).

---

(١) أثر ابن مسعود هذا، أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٦٣) وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٣٤) وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ولا بد يوماً أن تردَ الودائعُ

(٢) كأنه يشير إلى ما رواه أحمد (٤/١٢٥) والطبراني (٧/٢٨١) عن شداد بن أوس مرفوعاً: «ليحملنَّ شرار هذه الأمة على سَنَن الذين خلو من أهل الكتاب حذو القذة بالقذة» قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٦١): ورجاله مختلف فيهم اهـ. وللطبراني أيضاً من حديث ابن مسعود مرفوعاً نحوه؛ قال الهيثمي: وفيه من لم أعرفه اهـ. المصدر السابق القُذّة: هي ريش السهم. والحديث يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان كما قال ابن الأثير في النهاية.

(٣) سورة هود الآيتان (١٥، ١٦).

والأحاديث كثيرة، منها حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين هم أول من تسعّر بهم النار: الغازي، والمتصدق، والقارىء؛ الذين أرادوا بذلك الدنيا، والنصيب وهو في مسلم[1].

فانظر محبة الدنيا ماذا حرمت هؤلاء من أجر، وأفسدت عليهم عملهم، وجعلتهم أول الداخلين إلى النار.

رابعاً: ـ أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة باشتغاله عنه بمحبوبه. والناس ها هنا مراتب: فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات، ومنهم من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها ـ وإن قام بغيره ـ، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي؛ فيفرط في وقته وفي حقوقه. ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه؛ فيؤديه ظاهراً لا باطناً، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها، هذا من أندرهم وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله، ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه، فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا.

خامساً: ـ أن محبتها تجعلها أكبر همّ العبد، وقد روى الترمذي[2] من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا

---

(1) مسلم في الجهاد (١٣/٥٠).

(2) صحيح: الترمذي في الزهد (٧/١٦٥) وسكت عليه، وهذا اللفظ بهذا الإسناد ضعيف، قال المنذري (٤/٨٢): رواه الترمذي عن يزيد الرّقاشي عنه. ويزيد قد وُثق، ولا بأس به في المتابعات، اهـ وللحديث شاهد عند ابن ماجه بلفظ آخر (٢/١٣٧٥) في الزهد قال فيه البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات. اهـ. وجوّده العراقي في: «تخريج الإحياء» (١٤/٢٦٨٧).

وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما قدر له».

سادسها : ـ أن محبها أشد الناس عذاباً بها، وهو معذب في دوره الثلاث : يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد جعل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبداً، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذاباً في قبره، يعمل الهمّ والحزنُ والغم والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسمه.

والمقصود: أن محب الدنيا يعذب في قبره، ويعذب يوم لقاء ربه. قال[1] تعالى:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾.

قال بعض السلف: «يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها».

وسابعها : ـ أن عاشقها ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق، وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام قوم، أو كظلّ زائل، إن اللبيب بمثلها لا يخدع.

وكان بعض السلف يتمثل[2] هذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إن اغتراراً بظل زائل حمق

(١) التوبة آية (٥٥).

(٢) القائل هو الإمام الذهبي الحافظ في قصيدة له ذكرها في كتابه «الكبائر» الكبيرة (٣٦).

قال يونس بن عبد الأعلى: «ما شبهت الدنيا إلّا كرجل نام فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه».

وأشبه الأشياء بالدنيا: الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه. وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب. وأشبه الأشياء بها: عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبَر، غدّارة بالأزواج، تزينت للخطّاب بكل زينة، وسترت كل قبح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره لظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلّا فقْد الآخرة، فإننا ضرتان، واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فآثر الخُطّاب العاجلة، وقالوا: ما على مَن واصل حبيبتَه مِن جناح، فلما كشف قناعها، وحل أزارها، إذا كلُّ آفة وبيلة، فمنهم من طلّق واستراح، ومنهم من اختار المقام؛ فما استتمت ليلة عرسه إلّا بالعويل والصياح.

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق، على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا في طلبها الغدو بالرواح، وسروا ليلهم، فلم يحمد القوم السرى عند الصباح، طاروا في صيدها، فما رجع أحد منهم إلّا وهو مكسور الجناح، فوقعوا في شبكتها، فأسلمتهم للذُّبّاح.

التوبة

التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستّار العيوب، وعلّام الغيوب، مبدأُ طريق السالكين، ورأسُ مال الفائزين، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والإجتباء للمقربين.

ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وقد قال تعالى[1]:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم؛ ثم علق الفلاحَ بالتوبة وأتى بكلمة «لعل» إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلاّ التائبون جعلنا الله منهم، وقال تعالى[2].

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾.

فقسم العباد إلى تائب وظالم وليس ثَم قسم ثالث. وأوقع اسم

(١) النور آية (٣١).
(٢) الحجرات آية (١١).

الظالم: على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله وفي الصحيح[1] عنه ﷺ أنه قال «يا أيها الناس توبوا إلى الله فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» .

والتوبة هي رجوعُ العبد إلى الله ومفارقتُهُ لصراط المغضوب عليهم والضآلين .

وشرائطُ التوبة ثلاثة ـ إذا كان الذنب في حق الله عز وجل ـ وهي : الندم والإقلاع، والعزم على عدم العودة .

فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلّا به إذ مَن لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه، وفي المسند[2] «الندمُ توبة» وأما الإقلاعُ فتستحيل التوبةُ مع مباشرة الذنب .

والشرط الثالث هو العزم على عدم العودة ويعتمد أساساً على إخلاص هذا العزم والصدق فيه، وشرَط بعض العلماء عدم معاودة الذنب، وقال: متى عاد إليه تبيّنا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة . والأكثرون على أن ذلك ليس شرط أما إذا كان الذنب متضمناً لحق آدمي، فعلى التائب أن يصلح ما أفسد، أو يسترضي مَنْ أخطأ في حقه، لما ثبت[3] عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال، وعِرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلّا الحسنات والسيئات» .

فهذا الذنب يتضمن حقان: حقاً لله وحقاً لآدمي، فالتوبة منه

---

(١) مرّ (ص ٥١) وهو في البخاري .

(٢) صحيح: ـ المسند (١/٣٧٦) من حديث بن مسعود. قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح اهـ. ورواه الحاكم (٤/٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبي وقال الحافظ ابن حجر: «هو حديث حسن» هـ الفتح (١٣/٤٧١)

(٣) البخاري في المظالم (٥/١٠١) والرقاق (١١/٣٩٥) من حديث أبي هريرة وألفاظهما غير هذا اللفظ .

بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

وهناك بعض التوبات الخاصة، نذكر منها بعون الله تعالى ما يلي:

إذا كانت المظلمة بقدح في الآدمي بغيبة، أو بقذف، فهل يُشترط إعلامُه؟

مذهبُ أبي حنيفة ومالك اشترطوا الإعلام، واحتجوا بالحديث السابق. والقول الآخر أنه لا يشترط الإعلام، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب، أو المقذوف في مواضع غيبته، أو قذفه بضد ما ذكره به، ويستغفر له، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، احتج لذلك بأن إعلامه مفسدة مَحْضَة لا تتضمن مصلحة، وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه، فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به.

أما توبة مَن اغتصب مالاً فعليه ردُّ هذا المال إلى أصحابه، فإن تعذر عليه ردُّه لجهله بأصحابه، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك فعليه أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها، فإذا كان يومُ استيفاء الحقوق كان لهم الخِيارُ بين أنْ يُجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم وبين ألاّ يُجيزوا ويأخذوا من حسناته بقدر أحوالهم ويكون ثواب تلك الصدقة له إذ لا يُبطِل الله سبحانه ثوابها.

فقد رُوي أن ابن مسعود (رضي الله عنه) اشترى من رجل جارية ودخل يزن له الثمن فذهب ربّ الجارية فانتظره حتى يئس من عودته فتصدق بالثمن وقال اللهم هذا عن رب الجارية، فإن رضي فالأجر له وإن أبَى فالأجر لي وله من حسناتي بقدره.

وأما توبة من عاوض غيرَه معاوضةً محرَّمة وقبض العِوَض كبائع الخمر والمغنيِّ وشاهد الزور ثم تاب والعوضُ بيده: فقالت طائفة يرده إلى مالكه إذ هو عينُ ماله ولم يقبض بإذن الشارع ولا حصل لربه في

مقابلته نفعٌ مباح، وقالت طائفة ـ بل وهو أصوب القولين ـ: بل توبته بالتصدق به وكيف يرد إلى دافعه مالاً استعان به على معاصي الله وهكذا توبة مَن اختلط مالهُ الحلالُ بالحرام وتعذر عليه تمييزُه أن يتصدق بقدر الحرام ويُطَيِّب باقي ماله والله أعلم.

مسألة :ـ إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حَطّه عنها الذنبُ أو لا يرجع إليها ؟

قالت طائفة : يرجع إلى درجته لأن التوبة تَجُبُّ الذنب بالكلية وتُصيِّره كأن لم يكن.

وقالت أخرى: لا يعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن في وقوف، وإنما كان في صعود، فبالذنب صار في هبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :ـ والصحيح أن مِن التائبين مَن لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيراً مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، وهنا مَثَل مضروب:

رجل مسافر سائر على الطريق بطُمأنينة وأمْن فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى فبينما هو كذلك إذ عرض له في سيره ظِلٌّ ظَليل، وماء بارد ومَقيل، وروضة مُزْهِرة، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها، فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير، فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به، وأنه رِزْقُ الوحوش والسِّباع، وأنه قد حِيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحلّ كتافه وقيوده، وقال له اركب الطريق واحذر هذا العدو فإنه على منازل الطريق

لك بالمرصاد، واعلم أنك ما دمتَ حاذراً منه متيقظاً له لا يقدر عليك فإذا غفلت وثب عليك، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعني على الأثر. فإذا كان هذا السائر كَيّساً فَطِناً لَبِيباً حاضرَ الذِّهْن والعقل استقبل سيره استقبالاً آخر أقوى من الأول، وأتم واشتد حذره وتأهب لهذا العدو، وأعدّ له عدته، فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيراً منه ووصوله إلى المنزل أسرع، وإن غفل عن عدوه، وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان، وهو متعرّض لما عرض له أولاً، وإن أورثه ذلك توانياً في سيره وفتوراً، وتذكراً لِطيبِ مَقِيله وحُسْنِ ذلك الرَّوْضِ أو عذوبةِ مائهِ لم يَعُد إلى مثل سيره ونقص عمّا كان.

التوبة النصوح

قال الله تعالى[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ .

والنصحُ في التوبة هو تخليصُها من كل غِش ونقص وفساد. قال الحسن البصري :- هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مُجْمِعاً على أن لا يعود فيه. وقال الكلبي :- «أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويُمسك بالبدن». وقال سعيد بن المسيّب :- «توبةً نصوحاً تنصحون بها أنفسكم».

قال ابنُ القيّم[2]: «النصحُ في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول : تعميم الذنوب واستغراقُها بها بحيث لا تدع ذنباً إلّا تناولته.

الثاني : إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوّم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث : تخليصُها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها

(١) سورة التحريم آية (٨).
(٢) انظر (مدارج السالكين) (١/٣١٠).

ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه ورياسته أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجلّ .

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والأوسط يتعلق بذات التائب، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه؛ فنُصْحُ التوبة: الصدقُ فيها والاخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة».

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلَها وتوبةٍ منه بعدَها فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة فإنه تاب عليه .

أولاً : إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد. فتاب الله عليه.

ثانياً : قبولاً وإثابة وذلك لقوله عز وجلّ (١).

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾.

فأخبر سبحانه[٢] أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التي جعلتهم تائبين فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم وهذا القَدْرُ من سر اسمَيْه «الأولُ والآخِر» فهو المعدُّ والممد ومنه السبب والمسبب، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الأباق وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق وقبول وإمداد .

---

(١) التوبة آية (١١٨).

(٢) ثم قال ابن القيم في المدارج (١/٣١٢) : « فأخبر سبحانه أن توبته عليهم ... » .

والتوبة لها مبدأ ومنتهى فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي أمرهم بسلوكه بقوله تعالى[1]

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

ونهايتها الرجوع إليه في الميعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب، قال الله عز وجلّ[2]:

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾.

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥٣).
(٢) سورة الفرقان آية (٧١).

أسرار التوبة ولطائفها

اعلم أن العبد العاقل إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى أمور :-

أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الإعتراف بكونها خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب.

الثاني : أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفاً وخشية تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته وحلمه وكرمه وتوجب له عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها البتة. ويعلم ارتباط الخلق والأمر والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها في الوجود، وهذا المشهد يطلعه على رياض موفقة من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

منها : أن يعرف العبد عزته في قضائه. وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء وأنه لكمال عزته حكَم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء وحال بين العبد وقلبه.

ومن معرفة عزته في قضائه أن يعرف أنه مدبّر مقهور ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلّا بعصمته ولا توفيق له إلّا بمعونته فهو ذليل حقير في قبضةِ عزيز حميد ومن شهود عزته في قضائه أن يشهد أن الكمال والحمد والعزة كلها لله وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ازداد شهوداً لعزة الله وكماله وحده وغناه.

ومنها: أن يعلم بره سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه. ومنها مشاهد حلم الله عز وجل في إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة فيحدث له معرفة ربه سبحانه باسمه «الحليم»

ومنها: معرفة فضل الله في مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلّا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلاً محموداً وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك فيوجب له ذلك شكراً ومحبة وإنابةً ومعرفةً باسمه «**الغفار**».

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والإنكسار والإفتقار وهي أربعة مراتب :-

المرتبة الأولى :- ذل الحاجة والفقر، وهذه عامة في جميع الخلق.

المرتبة الثانية :- ذل الطاعة والعبودية، وهو خاص لأهل طاعته.

المرتبة الثالثة :- ذل المحبة فالمحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته يكون ذُلّه.

المرتبة الرابعة :- **ذل المعصية والجناية وحقيقة ذلك هو الفقر، فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم.**

ومنها: أن اسم «الرّزّاق» يقتضي مرزوقاً «والسميع البصير»

يقتضي مسموعاً ومُبْصَراً كذلك أسماء الغفور العفو التواب يقتضي من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات.

وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول[1]: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم».

ومن أسرارها: ما ورد في الصحيحين[2] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فُلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح:- اللهم أنت عبدي وأنا ربّك أخطأ من شدة الفرح». وهذا لفظ مسلم.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً وأَسَرَه عدوُّك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدوَّ سيسومُه سوءَ العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه وهو غرسك وتربيتك ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد فلم يفاجئك إلاّ وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويمرغ خديه على تراب أعتابك فكيف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على ما سواه. هذا ولستَ الذي أوجدته وخلقته وأسبغتَ عليه نعمك والله عز وجلّ هو الذي أوجد عبده وخلقه وأسبغ عليه نعمته وهو يحب أن يتمها عليه.

---

(١) مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٦٥) من حديث أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه).

(٢) البخاري في الدعوات (١١/١٠٢) عن أنس مرة وابن مسعود أخرى، ومسلم في الذكر والدعاء (١٧/٦٣) عن أنس (رضي الله عنه).

ورجاؤنا الأخير هو أن لا يفوتكم أن تدعوا لنا بـالصدق والإخـلاص واليقين والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

نسأل الله عز وجـلّ أن يجعلنا ممن آخـر دعواهم: أنِ الحمـد لله رب العـالمين سبحـانـك اللهم ربنـا وبحمـدك، أشهـد أن لا إلـه إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

- وهـذا آخر ما رجوتُ من التحقيق والتعليق و بالله تعالى التوفيق فإن أصبتُ فمن الله وإن أخطأتُ فمني ومن الشيطان..
ربنـا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

مصادر التحقيق

الإحسان (صحيح ابن حبان) – ابن بلبان
إحياء علوم الدين للغزالي
الأذكار – للنووي
الأطراف – المزي
البداية والنهاية – لابن كثير
بلوغ المرام – لابن حجر
تحفة الأحوذي شرح الترمذي للمباركفوري
تحقيق المسند – لشاكر
تخريج الإحياء – للغزالي
الترغيب والترهيب – للمنذري
تلخيص المستدرك – للذهبي
تهذيب الأسماء واللغات – للنووي
تهذيب التهذيب – لابن حجر
الجامع الصغير – للسيوطي
جامع العلوم والحكم – لابن رجب
جلاء الأفهام – لابن القيم
حاشية السندي علي ابن ماجه – للسندي
حلية الأولياء – لأبي نعيم
روضة العقلاء – لابن حبان
رياض الصالحين – للنووي
الزهد – لأحمد
الزهد الكبير – للبيهقى
الزوائد – للبوصيري
الزواجر – للهيتمي
زيادات الزهد – لعبد الله بن أحمد بن حنبل
زيادات المسند – لعبد الله بن أحمد بن حنبل
سبل السلام – للصنعاني
سنن أبي داود – عون المعبود
سنن الترمذى – تحفة الأحوذى
سنن ابن ماجة – محمد فؤاد عبد الباقي
سنن النسائي – المجتبى
شرح الألفية للعراقي
شرح السنة للبغوي
الشكر لابن أبي الدنيا
شمائل الترمذي
صحيح البخاري
صحيح ابن حبان – موارد الظمآن
صحيح مسلم شرح للنووي
صيد الخاطر لابن الجوزي
العبر للذهبى
عمل اليوم والليلة لابن السنى
عون المعبود – لشمس الحق آبادي

الفتاوي المصرية – لابن تيمية (مختصر)
فتح الباري شرح صحيح البخاري – لابن حجر
الفتح الرباني ترتيب المسند – للساعاتي
فتح المبين شرح الأربعين – للهيثمي
فضائل القرآن – للنسائي
فيض القدير – للمناوي
كشف الأستار – الهيثمي – البزار
لسان العرب – لابن منظور
لسان الميزان – لابن حجر
المجتبى – شرح النسائي للسيوطي
مجمع الزوائد – للهيثمي
مجموعة الفتاوي – لابن تيمية
مدارج السالكين لابن القيم
محاسبة النفس – لابن أبي الدنيا
المستدرك – للحاكم
المسند – لأحمد بن حنبل
المعجم الوسيط
المنهاج شرح صحيح مسلم – صحيح مسلم
موارد الظمآن – صحيح ابن حبان
ميزان الاعتدال – للذهبي
نتائج الأفكار تخريج الأذكار لابن حجر
النهاية – لابن الأثير
نيل الأوطار – للشوكاني
وفيات الأعيان – ابن خلكان

الاستدراكات على التحقيقات

الصفحة		الاستدراك
٦٥	(١)	خرجه ابن أبي الدنيا من رواية محمد بن المهاجر عن يونس بن ميسرة قال : ليس الزهد ... فذكره ، كذا فى « جامع العلوم والحكم »(ص ٢٥٤) لابن رجب .

وهذا الأثر روى مرفوعاً بسندٍ ضعيف من طريق عمرو بن واقد القرشى عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : فذكره ، أخرجه ابن ماجة (٢/١٣٧٣) والترمذي (٧/٣) تحفة وقال : « غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » .

قلت : وسنده ضعيف من أجل عمرو بن واقد ؛ فإنه منكر الحديث .

ورواه أحمد فى « الزهد »(ص ١٨) ولكن موقوفاً على أبى مسلم الخولانى قال ابن رجب (ص ٢٥٤) : « الصحيح وقفه كما رواه الإمام أحمد .. » .

وقال الهيتمي فى « فتح المبين »(ص ٢٣٢) : « ... لان أحمد رواه موقوفاً على أبى مسلم الخولاني ... وهو الصحيح » .

أما ابن القيم فتردد في نسبته فقال فى المدارج (٢/١٣) : « ... كلام الحسن أو غيره ... وقد روى مرفوعاً » .

وقال فى « الهجرتين »(ص ٢٣٤) : « ومن هذا الأثر المشهور وقد روى مرفوعاً وموقوفاً » .

فائـدة :

قال ابن القيم : « هذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه » .

١٢١ (٥) صحيح : ولكن لم يخرج البخاري من الحديث المذكور سوى قوله « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » في الرقاق (١١/٣١٩) وغيره .

وهذا اللفظ عند الترمذي في الزهد (٦/٦٠١) وقال : حسن غريب ، وكذا رواه الحاكم موقوفاً ومرفوعاً فى المستدرك : فالمرفوع في التفسير (٢/٥١٠) وصححه ووافقه الذهبي ، وفى الأهوال (٤/٥٧٩) ، وقال المناوي (١/٥٣٧) : « هذا الحديث حسن أو صحيح » ا هـ . أما الموقوف ففي « كتاب الأهوال » أيضا على أبي ذر (٤/٥٧٩) وصححه على شرطهما ورده الذهبي بقوله: «منقطع» أما قوله : «لوددت أني كنت شجرة تعضد » فهو من كلام أبي ذر موقوفاً عليه عند الترمذي أيضاً ، وأحمد فى الزهد (ص ١٤٦) .

وأخرج عبد الله بن أحمد فى زيادات الزهد (ص ١٣٨) هذا الأثر موقوفاً على أبي الدرداء وأخرج « الديلمي » قصة طويلة عن عمر بن الخطاب وفيها هذا الأثر وفى آخره : فأوحى الله تعالى : يا محمد : إنى بعثتك مبشراً ...» قال ابن كثير فى نهاية البداية (٢/١٢٦) : وقال الضياء : قال الحافظ أبو القاسم : (يعنى إسماعيل بن محمد بن الفضل : « هذا حديث حسن ، وإسناده جيد ») .

(٦) البخاري في بدء الخلق (٦/٣٠٠) ، ومسلم في الاستسقاء (٦/١٩٦) .

١٢٢ (٤) وكان عمر بن الخطاب يقول : « لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل » .

(٥) أخرجه أحمد فى « الزهد » أيضاً (ص ١٢٤-١٢٥) .

١٣٠ تنبيه : ما ذكره أخي الشيخ أحمد بن فريد من كون الإمام أحمد حدث عن سفيان إنما هو فى « الزهد »(ص ٩٢) ولكن ليس عن سفيان مباشرة إنما بواسطة عمر بن سعد (أبو داود الحفريّ) ، ومن هذه الطريق أخرجه البيهقي فى « الزهد الكبير » رقم (٢٥٠) وسفيان هو : الثورى .

الأحاديث والآثار

« المقطوع »

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
الإخلاص	١٣
بعض الآثار عن الإخلاص	١٧
حقيقة النية وفضلها	١٨
فضل النية	٢٠
فضيلة العلم والتعليم	٢١
أنواع القلوب وأقسامه	٢٤
أقسام القلوب	٢٥
علامات مرض القلب وصحته	٢٨
أسباب مرض القلب	٣٠
سموم القلب الأربعة	٣٢
فضول الكلام	٣٣
فضول النظر	٣٧
فضول الطعام	٤٠
فضول المخالطة	٤٢
أسباب حياة القلب وأغذيته النافعة	٤٤
ذكر الله وتلاوة القرآن	٤٥
الاستغفار	٥٠
الدعاء	٥٣
اداب الدعاء	٥٦
الصلاة على النبي	٥٨
قيام الليل	٦١
الزهد في الدنيا وبيان حقارتها	٦٣
درجات الزهد	٦٨